طبعة خاصة
لجمهورية مصر العربية

على نهر پييدرا هناك جلستُ فبكيت

رواية

باولو كويلو

مؤلف الرائعة العالمية "الخيميائي"



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

على نهر پييدرا
هُنــاكَ
جلستُ فبكيت

على نهر پييدرا
هُنـاكَ
جلستُ فبكيت

پاولو كويلو

ترجمة: بسّام حجّار

تدقيق لغوي: روحي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

طبعة خاصة لجمهورية مصر العربية

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: Na Margem Do Rio Piedra Eu Sentei E Chorei

نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة، أسبانيا بوكالتهم عن پاولو كويليو

موقع پاولو كويليو على الإنترنت:
http://www.paulocoelho.com.br
Blog پاولو كويليو: www.paulocoelhoblog.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
e-mail: tradebooks@all-prints.com
website: www. all-prints.com

توزيع: سويدان للتوزيع
تلفون: ٣٦٥٣٦٧٥ ٠١٢
٣٠٣٣٢٠٣

ISBN: 978-9953-88-040-2

تصميم الغلاف: عبّاس مكي

الإخراج الفني: زاهية عاصي

إلى مونيكا، رفيقتي منذ البداية، التي تلهب العالم بحبها وحماستها.

إلى باولو روكو، لأجل غبطة المعارك التي خضناها جنباً بجنب ولأجلِ شرف المعارك التي خضناها فيما بيننا.

إلى ماثيو لور، لأنه لم ينس سطراً مفعماً بالحكمة من الـ *I-Ching*: «المثابرة مستحبة».

«والحكمة يُبرِّرها جميع أولادِها»

لوقا (الفصل ٧ ــ الآية ٣٥)

مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن، يُحتضَر، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

ـ من كان معلّمك ايها المعلّم؟

أجاب: «بل قل المئات من المعلمين. وإذا كان لي أن أسميهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

ـ «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير الآخرين؟»

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية:

«أولهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكّن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت منه المساعدة، ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك.

فاخبرني بانه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمل، وأكثر من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، ما إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتّخذ، على الدوام، منوالاً واحداً لا يتغير: 'لم أوفّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقّق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: 'لم أوفق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة».

ـ «ومن كان المعلّم الثاني؟»

ـ «كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غير انعكاس لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلب الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّف حسن قليلاً، ثم تابع:

ـ «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن

يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمعْ يا صبيّ: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبيًّا. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظات معينة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أسرّ بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسُحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، وما زلت تلميذها. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ــ لبنان» في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مخيلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله مني، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيلة ـ المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

ملاحظات الكاتب

كان مبشّر إسباني يزور إحدى الجزر عندما التقى ثلاثة كهّانٍ من الأزتيك.

سأل قائلاً:

ـــ بأي طريقة تصلّون؟».

أجابه أحدهم:

ـــ نحن لا نجيد إلّا صلاة واحدة، أجابه أحد الأزتيك. نبتهل قائلين: «إلهنا، أنت ثلاثة ونحن ثلاثة. فارحمنا».

فقال المبشّر:

ـــ صلاة جميلة، سوى أنّها ليست بالضبط الصلاة التي يستجيب إليها الربّ. سوف ألقنكم صلاة أفضل منها.

علّمهم الراهب صلاة «كاثوليكية» وتابع رحلته التبشيرية. وبعد سنوات طويلة كان عليه، خلال رحلة عودته إلى إسبانيا على متن سفينة، أن يمرّ بالجزيرة نفسها. ومن أعلى سطحها لمح الكهّان الثلاثة على الضفة، فأومأ لهم بيده.

عندها، تقدم الرجال الثلاثة نحوه سائرين على صفحة الماء.

ناداه أحدهم وهو يقترب من السفينة: «أبتي! يا أبتي! علّمنا مجدداً تلك الصلاة التي يستجيب لها الربّ، لأننا لم نفلح في استذكارها.

قال المبشِّر وقد شهد المعجزة بأمّ عينيه: «إني لا أرى طائلاً فيها». واستغفر ربَّه، لأنَّه لم يدرك من قبل أن ربَّه ناطق باللغاتِ كلّها.

هذه الحكاية هي خير ما أحاول سردَه في هذا الكتاب. إذ قلَّما نلاحظُ أننا نحيا في غمرةِ العجائبي. والمعجزات تحصل من حولنا، وعلامات الربّ تنير لنا الدرب، والملائكة تجهد في أن تسمعنا صوتها. لكنّنا، إذ يستغرقنا ما لقنّاه من أن بلوغ الربّ له صيغه وقواعده، لا نولي كلَّ ذاك انتباهاً. ولا ندرك أنه موجود حيث يُفسَح له في المجال ليدخل.

إن الشعائر الدينية التقليدية لها أهميتها؛ فهي تجعلنا شركاء الآخرين في التجربة الجمعية للعبادة والصلاة. ولكن علينا أبداً ألاً ننسى أن التجربة الروحية هي أوّلاً تجربة حبّ عملية. وليس في الحبّ قواعد. ويبقى لواحدنا أن يحاول اتّباع كتب الإرشادات، والتحكّم بقلبه، وامتلاك خطة مدروسة لتصرّفه. غير أن شيئاً من هذا لن يجديه نفعاً. فالقلبُ هو صاحب الأمر، وما يأمر به القلب هو القاعدة.

لقد أتيح لنا جميعاً أن نتثبّت من ذلك بأنفسنا، ووجدنا أنفسنا، في وقتٍ ما، نسرّ لأنفسنا منتحبين: «إني أتألّم لأجلِ حبٍّ لا يستحق عذابي». وتُضنينا العذابات لظنّنا بأننا نعطي أكثر مما نأخذ، ولأنَّ حبَّنا لا يُجزى، ولأننا لا نتمكّن من فرض قواعدنا. لكننا نتعذّب بلا سبب، لأنّ في الحبّ بذرة نمائنا.

وكلّما ازددنا حبّاً، اقتربنا من التجربة الروحية. فالملهمون حقّاً، أولئك الذين اشتعلت قلوبهم بالحبّ، كانوا يتغلّبون على كلّ الأفكار المسبقة السائدة في عصرهم. كانوا يُنشدون ويضحكون ويصلّون، بأعلى صوتهم، ويرقصون ويتشاركون في ما أسماه القديس بولس «الجنون المقدَّس». كانوا مغتبطين لأنّ من يُحبّ قد هزم العالم، من دون أن يخشى فَقْدَ أي شيء. فالحبُّ الحقُّ هو فعل عطاء تام.

«نهر بييدرا...» هو «كتاب حول أهمية هذا العطاء. بيلار ورفيقها هما شخصيتان وهميتان، لكنهما يرمزان إلى الصراعات التي لا تحصى، والتي هي قسمتنا في بحثنا عن «الشريك الآخر». عاجلاً أم أجلاً، ينبغي لنا أن نتغلّب على مخاوفنا، ما دام الدرب الروحي يُسلك في كنف اختبار الحبّ اليومي.

كان القسّ توماس ميرتون يقول: «إن الحياة الروحية ليست سوى الحبّ. نحن لا نحبّ لأننا نريد فعل الخير أو أن نعين أو أن نحمي أحداً. ففي سلوكنا هذا النحو إنّما نرى في قريبنا مجرّد شيء، ونرى في أنفسنا كرماء وحكماء. ومثل هذا لا يمتّ بصلة إلى الحبّ. فأن تحبّ هو أن تتحدّ عاطفياً بالآخر. وأن تكتشف فيه شرارة الربّ».

عسى بكاء بيلار على ضفاف نهر بييدرا أن يقودنا على درب مثل هذا الاتحاد العاطفي.

باولو كويلو

على نهر بييدرا...

... هناك جلستُ فبكيت. تزعم الأسطورة أنّ كلّ ما يقع في مياه هذا النهر، من أوراق شجر وحشرات وأرياش طيور، يستحيل حصىً في مجراه. أوّاه، كم أودّ أن أنتزع قلبي من صدري وأرمي به في مياهه الجارية... فلا يبقى، إذ ذاك، ألمٌ أو ندم أو ذكريات.

على نهر بييدرا هناك جلستُ فبكيت. إنه بردُ الشتاء... أشعرُ بدموعي على وجهي، وقد امتزجت بالمياه الجليدية التي تجري قبالتي. في موضع ما يلتقي هذا النهرُ نهراً آخر، ثمّ آخر، إلى أن تندفع كلّ هذه المياه في موضعٍ ما، بعيداً من ناظريّ ومن قلبي، لتمازج مياه البحر.

فلتجرِ دموعي، على هذا النحو، بعيداً جداً، فابداً لا يعلم حبّي أنّي، ذات يوم، بكيتُ لأجله. لتجرِ دموعي بعيداً جدّاً، وعندها سوف أنسى النهر والدير والكنيسة في البيرنيه، والضباب والدروب التي سلكناها سوياً.

سوف أنسى طرقات وجبالَ وحقولَ أحلامي، وتلك الأحلام التي كانت أحلامي، ولم أعترف بأنها كذلك.

أذكر لحظتي السحرية، تلك اللحظة التي فيها «النعم» أو «اللا» من شأنها أن تغيّر حياتنا كلّها. ويخيَّل إليّ أنَّ الأمرَ جرى منذ زمنٍ بعيد، مع أني منذ أسبوع فقط، عثرتُ على حبّي وفقدته.

على ضفاف نهر بييدرا كتبتُ هذه القصّة. كانت يداي مجمّدتين، وساقاي المثنيّتان يسري بهما خدرٌ، فكان عليّ أن أتوقّف عن الكتابة تكراراً.

كان يقول: «حاولي فقط أن تعيشي. فالاستذكار وقف على من هم أكبر سناً».

ربّما كان الحبّ هو الذي يجعلنا نشيخ قبل الأوان، ويعيدنا إلى صبانا حين يكون الشباب قد ولّى. ولكن كيف لي ألا أستعيد ذكرى تلك الهنيهات؟ لذلك أكتب، لكي أجعل الحزن حنيناً، والعزلة ذكريات، لكي يتاح لي، فور انتهائي من تدوينها، أن أرمي بها في نهر بييدرا. ألم تقل لي المرأة التي استقبلتني، نقلاً عن عبارة نطقت بها إحدى القدّيسات: إن من شأن المياه، إذ ذاك أن تخمد ما دوّنته النيران.

كل قصص الحبّ متشابهة.

لقد ترعرعنا معاً في طفولتنا ومراهقتنا. ثمّ رَحَل، كما يرحل كلّ فتيان البلدات الصغيرة. قال إنه يريد اكتشاف العالم، وإنّ أحلامه تتخطّى حدود «صوريا».

خلال بضعة أعوام، لم يبلغني شيء من أخباره. كنتُ أتلقى، من حين إلى آخر، رسالة منه، ولا شيء سوى ذلك، لأنه لم يرجع يوماً إلى مرجات طفولتنا ودروبها.

عندما أنهيت دراستي، انتقلت للإقامة في سرقسطة، وأدركتُ أنه على حق. صوريا كانت بلدة صغيرة، وشاعرها الكبير الوحيد قال إن السَّير هو الذي يبتكر الدرب. انتسبت إلى إحدى كليات الجامعة، وعثرتُ على خطيب. وانصرفتُ في تلك الأثناء إلى الاستعداد لامتحان يخوّلني الحصول على وظيفة في إدارة رسمية. وعملتُ بائعة في أحد المتاجر، لأسدّد نفقات دراستي الجامعية، رسبت في الامتحان وانفصلت عن خطيبي.

في تلك الفترة ازدادت رسائله إليّ، وكانت تصلني مدموغة بطوابع بريدية من بلدان مختلفة. كنت أشعر بأني أحسده. فهو كان الصديق الذي يكبرني سنّاً، الذي يعرف كل شيء، الذي يجوب العالم ويكبر جناحاه، فيما كنتُ أسعى لترسيخ إقامتي حيث أنا.

ذات يوم مشرق، أخذت رسائله تتحدث عن الله. وكانت كلها مرسلة من مكان واحد، في فرنسا. وفي إحداها عبَّر عن رغبته

بدخولِ الدير وتكريس حياته للصلاة. فطلبت منه في رسالتي الجوابية أن يتريَّث قليلاً، وأن يحيا حريَّته، لوقت أطولَ قليلاً، قبل أن يقرِّر التزاماً جدّياً مثل هذا.

لكني، حين عاودت قراءة ما كتبت، قررت أن أمزِّقها: فمن أكون أنا لكي أحدِّثه عن الحرية والالتزام؟ لقد كان يدرك معنى هاتين العبارتين. أما أنا، فلا.

ذات يوم بلغني أنه يلقي محاضرات، فذهِشتُ لأنه كان لا يزال صغيراً، وأصغر من أن يعطي دروساً في أي مجال. وإذا بي، منذ أسبوعين تقريباً، أتلقى منه بطاقة يقول فيها إنه سيحاضر في مجموعةٍ صغيرة في مدريد، وإنه سيسرّ كثيراً لرؤيتي بين الحاضرين.

استغرقت الرحلة، بين سرقسطة ومدريد، أربع ساعات. غير أني كنت راغبةً في أن ألتقيه مجدّداً. كنت راغبة في سماع صوته، في الجلوس معه في أحد المقاهي، واستذكار الأيام التي كنا نلعب فيها سويّاً، ونظن أن العالم من الاتساعِ، بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يجوب أصقاعه كلها.

السبت ٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٣

بدا لي المكان، الذي كانت ستجري فيه المحاضرة، رسمياً أكثر مما تخيلت، وأعداد الحاضرين أكثر مما توقعت. ولم أجد تفسيراً مقنعاً لذلك. «أتراه أصبح شخصية مشهورة؟» إنه لم يذكر شيئاً من هذا القبيل في رسائله. وكم وددتُ أن أخاطب الناس من حولي للاستفسار عن هذا الأمر، وأسألهم ما الذي جاء بهم إلى هذا المكان؟ لكني لم أجرؤ.

دهشتُ حين رأيته داخلاً. لم يكن شبيه الصبي الذي عرفته، ولكن من الطبيعي جداً أن يتغير المرء بعد إحدى عشرة سنة. كان أكثر وسامة، وكانت عيناه تبرقان.

قالت إمرأة جالسة بقربي: «إنه يعيد إلينا ما كان لنا».

بدت لي العبارة مستهجنة بعض الشيء.

سألت:

ـــ ما الذي يعيده إليكم؟

ـ ما سُلب منا: الدين.

أجابت امرأة أصغر سناً، جالسة إلى يميني:

ـ لا، إنه لا يعيد إلينا شيئاً، ليس بإمكانهم أن يعيدوا إلينا ما أصبح ملكاً لنا.

سألتها المرأة الأولى، حانقة:

ـ ماذا تفعلين هنا إذاً؟

ـ أريد أن أسمع ما يقول. وألمس حقيقة تفكيره بالضبط. لقد تسببوا في إحراقنا مرّةً من قبل، وقد يكون في نيّتهم أن يعاودوا الكرّة.

ـ إنه صوت منفرد، إنه يبذل ما بوسعه.

بدرت من المرأة الأصغر سناً ابتسامة سخرية، وأشاحت بوجهها لتضع حدّاً للمحادثة.

أردفت الأخرى قائلة وهي تنظر إلي، هذه المرّة، بحثاً عمّن يدعم رأيها:

ـ إنه موقف شجاع، خصوصاً إذا صدر عن طالب في مدرسة إكليريكية.

غير أني كنت عاجزةً عن فهم أي شيء ممّا تقولان، ولزمت الصمت، فخاب رجاؤها. التفتت نحوي المرأة الأصغر سنّاً، وغمزت بعينها، كأني متواطئة معها. لكنّ ما دفعني إلى التزام الصمت هو سبب آخر. كنت أفكّر في ما قالته تلك المرأة: «طالب في مدرسة إكليريكية». مستحيل. لو كان كذلك لأخبرني.

شرع في الكلام، وكنت عاجزة عن التركيز كما ينبغي. قلت في سرّي: «كان ينبغي أن أرتدي ملابس أفضل من هذه»، من دون أن أعي تماماً لِمَ يشغلني مثل هذا الأمر. كان قد انتبه إلى وجودي بين المستمعين، وحاولت أن أتكهّن بما يدور في خَلَده: كيف أبدو في عينيه؟ وما الفارق الظاهر بين فتاة في الثامنة عشرة وامرأة في التاسعة والعشرين؟

كان صوته هو هو، لم يتغيّر. لكن كلماته تغيّرت.

كان يقول، ينبغي أن نجازف، فنحن لا ندرك حقاً معجزة الحياة إلا إذا اتحنا لغير المتوقَّع أن يحصل.

كل يوم يهبنا الربّ، مع شروق الشمس، هنيهة يمكن فيها تغيير كلّ ما يجلب علينا الشقاء. وكلّ يوم نزعم أننا لا نتنبّه لوجود هذه الهنيهة، ونتظاهر بأننا نؤمن أنّ اليوم شبيه أمسِ، وأنه سيكون شبيه غد. غير أن الكائن، الذي ينتبه إلى اليوم الذي يعيشه، يكتشف اللحظة السحرية. وهذه قد تكون كامنةً في اللحظة التي فيها، عند الصباح، ندسُّ المفتاح في القفل، في اللحظة التي فيها يسود الصمت بعد الفراغ من طعام العشاء، في ألفِ شيءٍ وشيءٍ تبدو لنا متشابهة. غير أنّ هذه الهنيهة موجودة، هنيهة تعبرنا خلالها كلّ طاقة الكواكب، فتتيح لنا أن نجترح المعجزات. السعادة قد تكون، أحياناً، بَرَكةً، لكنها في معظم الأحيان تمثّل ما نجهد في تحقيقه. إن اللحظة السحرية في كلّ نهار تُعيننا على التغيير، وتحثّنا على السعي وراء أحلامنا. من المؤكّد أننا سنتألّم، وأنّ المشقات ستعترض سبيلنا، لكنّها ليست سوى مراحل انتقالية لا تترك أثراً. وفيما بعد، سوف يكون بوسعنا أن نلتفت إلى الوراء باعتزاز وتقوى.

شقيٌّ هو من استبدّت به الخشيةُ من المجازفة. فمن كانت هذه حاله ربّما لم يعرف الإحباط يوماً، وربما لم يعرف الخيبة يوماً، ولم يتألم كما تألّم أولئك الذين لديهم حلمٌ يحققونه. لكنْ عندما يلتفت إلى الوراء (لأننا دائماً نلتفت إلى الوراء) سوف يسمع قلبه مُسرّاً إليه قائلاً: «ماذا صنعت بالمعجزات التي نثرها الربّ على أيامك؟ ماذا صنعت بالمواهب التي أودعها السيّدُ لونك؟ لقد واريتها في قعر حفرة، لأنك كنت تخاف فَقْدها. لذا لم يبقَ لديك الآن إلا يقينك بأنّك خسرت حياتك».

شقيٌّ هو من يسمع هذه الكلمات. وإذ ذاك فقط، يؤمن بالمعجزات، لكنّ هنيهات الوجود السحرية تكون قد ولّت.

عند فراغه من إلقاء عظته، تحلّق الحضور من حوله. فانتظرتُ، مهتمّةً بالانطباع الذي سأتركه لديه بعد كلّ هذه السنوات. كنتُ أشعر بأني طفلة فاقدة الثقة بنفسي، وغيورة لأني لا أعرف أصدقاءه الجُدُد، شاعرةً بالضيق لأنّه يُبدي اهتماماً بالآخرين أكبر من اهتمامه بي.

عندها اقترب مني. احمرّت وجنتاه، وفجأة، لم يعد ذلك الرجل الذي كان يتحدث بوقار منذ قليل، وعاد من جديد ذلك الصبي الذي كان يختبئُ معي في كنيسة القديس ساتوريو الصغيرة، قائلاً إنه يودّ أن يجوب العالم، فيما أهلنا يبلّغون رجال الشرطة ظنّاً منهم أننا غرقنا في النهر.

قال: «مرحباً يا بيلار».

فقبلته. كان بإمكاني أن أمتدحه ببعض عبارات التهنئة. كان بإمكاني أن أبدي ضجري من البقاء وسط أولئك الناس جميعاً. كان بإمكاني أن أسرد على مسمعه حكاية طريفة عن ذكريات طفولتنا، وعن اعتزازي بما صار إليه، وقد حظي بإعجاب الآخرين. كان بإمكاني أن اشرح له بأن عليّ أن أغادر بسرعة لكي ألحق بالباص الأخير المغادر إلى سرقسطة.

«كان بإمكاني»: عبارة لن نتوصل يوماً إلى إدراك معناها. لأنّ هناك أموراً، في كلّ لحظة من حياتنا، كان من شأنها أن تحصل، لكنها، في آخر الأمر، لم تحصل. هناك لحظات سحرية تنقضي خفية ثمّ، فجأة، تغيّر يد القدر عالمنا.

وهنا ما جرى في تلك اللحظة. فعوض كلّ ما كان بإمكاني أن أفعل، نطقت بعبارة أفضت بي، بعد أسبوع واحد، إلى ضفة النهر وجعلتني أكتب هذه السطور.

سألت: «أبإمكاننا أن نذهب لتناول فنجان قهوة؟».

أمّا هو، وقد استدار نحوي، فأمسك باليد التي بسطها له القدر، وقال:

«من الضروري جداً أن أكلّمك. غداً سألقي محاضرة في بيلباو. إني أملك سيارة».

أجبت، من دون أن أعي أن ذلك كان المخرج الممكن الوحيد: «يجب أن أعود إلى سرقسطة».

لكني، في عشر ثانية، ربّما لأني عدتُ طفلة، وربّما لأننا لسنا من يدوّن أفضل لحظات وجودنا، أردفت قائلة:

«عيد الحبل بلا دنس سيحلّ قريباً. ربّما أمكنني أن أصحبك إلى بيلباو، ثمّ أعود مباشرةً من هناك».

كنت أتحرّق لسؤاله عن «الطالب الإكليريكي».

فسألني وكأنه قرأ أفكاري: «ألديك ما تودّين السؤال عنه؟».

لم أشأ أن أقول الحقيقة:

ــ أجل. قبل المحاضرة قالت إحدى النسوة الحاضرات إنك إنّما تردّ ما هو ملكٌ لها.

ــ لا أهمية لذلك.

ــ هذا الأمر يهمّني. إني أجهل كلّ شيء عن حياتك، وقد فوجئت بهذا العدد من الناس.

ضحك واستدار نحو الأشخاص الآخرين الواقفين بمحاذاتنا.

فقلت، وأنا أمسك بذراعه:

ــ لحظة، إنك لم تجب عن سؤالي.

ـــ لا شيء مما قد يثير اهتمامك يا بيلار.

ـــ لا بأس، أريد أن أعرف.

شهق نفساً عميقاً وانتحى بي ركناً من أركان الحجرة:

ـــ إن الأديان السماوية الثلاثة الموحّدة، اليهودية والإسلام والمسيحية، هي أديان ذكورية. والرهبان رجال. فالرجال إذاً يتحكّمون بالعقائد ويسنّون القواعد.

ـــ حسناً، ولكن ما الذي أرادت المرأة أن تقوله؟

تردّد قليلاً، ولكنّه أجاب:

ـــ إنني أمتلك رؤية مختلفة للأمور. إنني أؤمن بالوجه الأنثوي للإله.

تنفّست الصعداء. كانت المرأة مخطئة. من غير الممكن أن يكون طالباً إكليريكياً، إذ لا يُعقل أن تكون للإكليريكيين رؤية مختلفة للأمور وقلت:

ـــ لقد عبّرت عن وجهة نظرك بأفضل وجه.

كانت المرأة الشابة التي نظرت إليّ بطرفة عين متواطئة تنتظرني عند الباب. قالت:

ـــ إني أعلم بأننا ننتمي إلى التقليد نفسه. أُدعى بريدا.

ـــ لا أفهم عمَّا تتحدّثين.

ـــ بالطبع. تفهمين.

وضحكت.

أمسكت بذراعي، وغادرنا سوياً قبل أن يتاح لي الاستفسار منها عن حقيقة الأمر. كان المساءُ بارداً، وما كنتُ أعرفُ جيّداً كيف سأقضي الليلة بانتظار صباح اليوم التالي.

سألت:

ـــ إلى أين نذهب؟

ـــ حتى تمثال «الإلهة».

ـــ يجب أن أجد فندقاً قليل الكلفة لقضاء هذه الليلة.

ـــ سأدلّك على واحد فيما بعد.

كنت أفضّل أن أجالسه في مقهى لنتحدّث قليلاً، وأتعلّم منه ما أمكنني تعلّمه. لكني لم أكن راغبة في مناقشتها. فسرتُ معها عبر «الباسيو ديلا كاستيلّانا» مستغرقة في التعرُّف إلى مدريد، التي لم أزرها منذ سنوات.

وسط الجادّة، توقفت وأشارت بيدها إلى السماء، وهتفت فرحاً وإعجاباً:

«هي ذي!».

كان القمر بدراً يشعّ خلَلَ أغصان الشجر العارية من الأوراق. فَقُلْتُ مذعنةً:

«إنه جميل».

لكنّها لم تكن مصغية إلي. بَسَطت ذراعيها على هيئة مصلوب، وفردت راحتيها باتجاه السماء، ولبثت على هذا النحو مستغرقةً في تأمّل القمر.

قلت في سرّي: «في أي مأزق ورّطت نفسي؟ جئت للاستماع إلى محاضرة، وها أنذا الآن أجتاز جادة «باسيو ديلا كاستيلانا» بصحبة هذه المعتوهة، وغداً أرحل إلى بيلباو».

قالت وهي مغمضة العينين: «أيا مرآة الإلهةِ الأرض، علّمينا أن ندرك قدرتنا واجعلي أن يفهمنا الرجال. بولادتك وسطوعك وصوتك وقيامتك في كبد السماء أظهرت لنا دورة البذرة والثمرة».

رفعت ذراعيها باتجاه السماء، ولبثت لبعض الوقت على هذا النحو. كان العابرون يلتفتون ويتضاحكون، لكنّها لم تعرهم انتباهاً، وكان الحرج القاتل من نصيبي أنا، لأني كنت واقفة بقربها.

قالت وهي تنحني للقمر بتقوى: «كان عليّ أن أفعل ذلك، لكي تحمينا الإلهة».

ــ ولكن، في آخر الأمر، عمّ تتحدثين؟

ــ عن الأمور التي تحدّث عنها صديقك، ولكن بعبارات دقيقة.

شعرتُ بالندم لأني لم أتتبع جيّداً ما جاء في المحاضرة، فلا أذكر بدقّة ما قاله فيها.

قالت المرأة الشابة عندما تابعنا طريقنا: «نحن نعرف الوجه

الأنثوي من الله. نحن النساء اللواتي يفهمن ويعشقن الإلهة الأم. وكان ثمن معرفتنا هذه الاضطهاد والمحارق، لكننا بقينا على قيد الحياة. والآن أصبحنا ندرك أسرارها».

ردّدت في داخلي: «الساحرات. المحارق».

وفيما هي تتابع حديثها، تمعّنت جيداً في تقاسيم وجهها. كانت جميلة، وشعرها الطويل، الأسمر المائل إلى الاحمرار، يتهدّل حتى منتصف ظهرها:

«ففيما كان الرجال يذهبون إلى الصيد، كنا نمكث في الكهوف، في رحم «الأم»، لنُعنى بأولادنا. وفي تلك الأثناء علّمتنا «الأمّ العظمى» كلّ شيء.

«لطالما عاش الرجل في حركة متّصلة. أما نحن فبقينا في أحشاءِ «الأم». وهذا ما أتاح لنا العلم أن البذار يستحيل نباتاً، وأخبرنا رجالنا بما أتيح لنا من علم. لقد خبزنا الرغيف الأوّل وأطعمناهم. وكوّرنا الإناء الأوّل لكي يتاح لهم أن يشربوا. وأدركنا دورة الخلق، لأن جسدنا كان يعاود إنتاج إيقاع القمر».

ثمّ توقفت عن الكلام فجأة:

«هي ذي».

تطلّعت. وسط ساحة تعبر من حولها السيارات، كان هناك نافورة ماء؛ ووسط الحوض، ينتصب تمثال لامرأةٍ في عربة تجرّها أُسُود.

قُلتُ لكي أظهر لها بأني أعرف مدريد: «إنها ساحة سيبيل».

كنت قد شاهدت هذا النصب على العشرات من البطاقات البريدية. غير أنها لم تكن مصغية إليّ. كانت وسط الطريق تشقُّ طريقها، متعرّجاً، بين السيارات.

صاحت بي قائلةً وهي تشيرُ بيديها: «لنذهب إلى هناك!».

وإذا كنتُ قد صمّمتُ على اللحاق بها، فلكي أسألها عن اسم

الفندق. فقد ضقتُ بكلِّ هذه التصرفات الشاذة، وكنت أشعر برغبةٍ في النوم. بلغنا الحوض تقريباً، في الوقت نفسه، وكان قلبي يخفقُ بسرعةٍ عجيبة. أما هي فالابتسامة لم تغادر شفتيها.

قالت:

ـ الماء! الماء هو أحد تجلياتها.

ـ أرجوكِ، إني احتاج إلى عنوان فندق رخيص.

غطّست يديها في الماء، وقالت:

ـ افعلي مثلي. المسي الماء.

ـ لن أفعل بالتأكيد. وليس عليك أن تتكبدي مشقّة من أجلي. سوف أبحث بنفسي عن فندق.

ـ انتظري قليلاً...

أخرجت من حقيبتها مزماراً صغيراً وراحت تعزف عليه. بدا اللحن الذي كانت تعزفه مخدِّراً، إذ فجأة صار صخب المرور بعيداً، واستكانت خفقات قلبي. فجلست على حافة البركة منصتةً إلى خرير المياه ونغم المزمار، وعيناي شاخصتان باتجاه القمر فوقنا. وكنت أشعر بأن شيئاً من طبيعتي كامرأة كان ماثلاً هناك.

لا أدري كم استغرق عزفها من الوقت. وعندما فرغت منه استدارت نحو نافورة الماء. وقالت:

ـ سيبيل إحدى تجليات الإلهة الأم. تلك التي ترعى المحاصيل، وتحمي المدن وتعيد للمرأة دورها ككاهنة.

ـ مَنْ أنتِ؟ لمَ إصرارك على مرافقتي؟

التفتت إلي:

ـ أنا مَنْ تعتقدينه فعلاً. إني أنتمي إلى دين «الأرض».

سألت بإلحاح:

ـ ماذا تريدين مني؟

ـ أستطيع أن أقرأ في عينيك. أن أرى في قلبك. سوف تعشقين وتتألمين.

ـ أنا؟

ـ تعلمين جيّداً ما أقصد. لقد رأيت كيف ينظر إليك. إنه يحبك.

كانت تلك المرأة مجنونة.

وقد أردفت قائلة:

ـ لهذا السبب أردتك أن ترافقيني: إنه على قدر من الأهمية. ومهما صدر عنه لسانه من حماقات، فهو، على الأقل، يعترف بالإلهة الأم. لا تدعيه لمخاطر الضلال. ساعديه.

قلتُ لها بحنق، وأنا أحاول أن أشق طريقي مجدّداً بين السيارات:

ـ أنتِ لا تدركين ما تقولين. تهيّؤاتك قد شوّشت ذهنك.

وأقسمت في سرّي أني لن أفكّر ثانية بأقوال هذه المرأة.

الأحد ٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٣

توقّفنا لتناول فنجان قهوة.

قلتُ لكي أصطنع بداية لمحادثة بيننا:

ــ لقد علمتك الحياة الكثير.

ــ لقد علّمتني أن بإمكاننا أن نتعلّم، وأن بإمكاننا أن نغيّر ما بأنفسنا. وإن بدا ذلك مستحيلاً.

كان يحاول التهرب من الخوض في الموضوع. فنحن لم نتبادل أي حديث تقريباً خلال الساعتين اللتين استغرقتهما المسافة إلى هذه الحانة المحاذية للطريق.

كنت قد حاولتُ في البداية أن أذكّره بطفولتنا، لكنه لم يُبد إلّا تجاوباً مُهذّباً. الأحرى أنه لم يكن منصتاً. كان واضحاً أن هناك خطباً ما. ربّما نأى به الزمن والمسافة عن العالم الذي كنت أحيا فيه. «إنه يتحدث في لحظات سحرية، فما شأنه بما صارت إليه كارمن، أو صار إليه سنتياغو وماريا؟» لقد أصبح عالمه مختلفاً. وما عادت صوريا سوى ذكرى بعيدة جامدةٍ في الزمن. وأصدقاء الطفولة ما زالوا في الطفولة، وشيوخاً، ما زالوا أحياء، كما كانوا منذ تسعة وعشرين عاماً مضت.

كنت قد بدأت أشعر بالندم لأني قبلت أن يصطحبني بالسيارة.

وعندما شعرت بانه يتهزب من الإجابة، في المقهى، صممت على التغاضي عن الموضوع.

كانت الساعتان التاليتان، اللتان استغرقتهما الرحلة إلى بيلباو، بمنزلة عذاب فعلي. كان لا يكفّ عن التحديق في الطريق أمامه، وكنت لا أكفّ عن التحديق من خلال زجاج نافذة الباب. ولم يكن أحد منا ليخفي ضيقه بما يحصل بيننا. لم تكن السيارة المستأجرة مجهّزة بمذياع، ولم يكن أمامنا إلّا أن نغالب وطأة الصمت.

قلتُ ما إن غادرنا الطريق السريعة: «سوف نسأل عن محطة "الحافلات"، فهناك رحلات اليومية إلى سرقسطة».

كنا في فترة ما بعد الظهر، وهناك عدد قليل من المارّة في الشوارع. صادفنا رجلاً، ثمَّ شاباً وفتاة، ولم يستوقفهم للاستفسار.

سألت بعد حين:

ـــ أتعلم أين تقع المحطة؟

ـــ ماذا؟

وكان لا يزال ساهياً عمّا أقول.

فجأةً أدركت معنى الصمت. فما عساه يقول لامرأة لم تسعَ يوماً لاكتشاف العالم؟ وما المثير حقاً في أن يجد نفسه جالساً بقربِ شخصٍ يخاف المجهول، ويرتضي بعمل مستقرّ وزواج تقليدي؟ وأنا، البائسة المسكينة، لم أكفَّ عن الحديث عن أصدقاء الطفولة المشتركين، وعن ذكريات غابرة في بلدةٍ تافهة. كانت تلك أحاديثي.

قلتُ عندما وصلنا إلى ما بدا لي أنه وسط المدينة: «بإمكانك أن تنزلني هنا». كنت أحاول أن تبدو نبرتي تلقائية، لكني شعرت بأني غبية، وتافهة ومضجرة.

لم يوقف السيارة. فقلت بإلحاح:

ـــ يجب أن أستقل الحافلة لكي أعود إلى سرقسطة.

ـــ لم يسبق لي أن أتيت إلى هنا. ولا أدري أين يقع فندقي، ولا المكان الذي ستجري فيه المحاضرة. كما أجهل أين تقع محطة الحافلات.

ـــ لا تقلق، سوف أتدبَّر أمري.

خفَّف من سرعة السيارة قليلاً، لكنه لم يتوقَّف.

شرع في الكلام مرتين: «كنت أودّ...». لكنه، في المرّتين، لم يُنهِ عبارته. فخيِّل إليّ أنه يودّ أن يشكرني لأني جئتُ بصحبته، وأن أبلِّغ الأصدقاء بأنه يحفظ لهم ذكراهم الطيّبة، وبذلك يخفِّف من وطأة ذلك الإحساس المزعج بيننا. قال أخيراً:

«أودّ أن ترافقيني إلى المحاضرة، هذا المساء».

شعرتُ بما يُشبه الصدمة. فربّما كان يحاول كسب بعض الوقت تعويضاً عن صمت الرحلة الشاق.

بيد أنه كرّر قوله: «أودّ حقّاً أن ترافقيني».

ربّما لم أكن عندها سوى فتاة ريفية، لا تملك شيئاً من نضارة نساء المدينة وحضورهن، وليس في حديثها ما يثير الفضول. غير أن حياةَ الريف، وإن لم تجعل النساء أنيقاتٍ عالماتٍ بأحدث موضة، فهي تعلِّمهن أن يصغين إلى قلوبهن واتّباع حدوسهنّ. ولدهشتي الكبيرة كان حدسي ينبئني أنّه في تلك اللحظة كان صادقاً.

تنفّست الصعداء. لم يكن في نيّتي طبعاً أن أبقى حتى موعد المحاضرة، ولكن بدا لي، في الأقل، أنّ الصديق الحميم الذي أعرفه قد عاد إليّ، وأنّه يدعوني إلى مشاركته مخاوفه وانتصاراته.

أجبتُ قائلة:

ـــ شكراً لأنك دعوتني. لكني لا أملك مالاً لأمكث في الفندق، ويجب أن أعود بسبب دراستي.

ـ إني أملك بعض المال. وبإمكانك أن تمكثي في غرفتي. سأعمد إلى استئجار غرفة بسريرين.

ولاحظت أنه بدأ يتصبَّب عرقاً برغم الجوّ القارس. راح قلبي يستمهلني بشارات إنذار لم أتمكّن من حلّ رموزها، وسرعان ما تبدّد ما أحسَسْتُ به لتوّي من حبور، لتستبدّ بي الحيرة.

أوقف السيارة بغتة، وراح يحدّق مباشرةً في عيني. فلا أحد يستطيع أن يكذب، أن يداري أمراً عندما يحدّقُ مباشرةً في عينيه. وكلّ امرأة حُبيت بالقدر الأقلّ من الحساسية تقدر أن تقرأ في عيني رجلٍ عاشق، مهما بدا الأمر عبثياً، ومهما كان تجلي هذا الحب في المكان والزمان غير متوقع. وسرعان ما استعدت في ذاكرتي ما قالته تلك الفتاة الصهباء قرب نافورة الماء.

كان مستحيلاً، لكنّه صحيح.

ما كنتُ لأحسب، أو يخطر ببالي، يوماً، أنه، بمضيّ هذه الأعوام كلّها، قد استذكر ما كان بيننا. كنا طفلين وترعرعنا معاً، واكتشفنا العالم يداً بيد. لقد أحببته، إذا كان لطفلةٍ أن تدرك معنى الحبّ. غير أنّ كلّ هذا لم يكن إلّا حفنةً من الماضي وينتمي إلى زمن تترك البراءةُ فيه القلب مُشرَعاً على أفضل ما تضمره لنا الحياة. بيد أننا اليوم قد أصبحنا راشدين وأكفياء. أما شؤون الطفولة فتبقى شؤون الطفولة.

نظرتُ مجدّداً في عينيه. ما كنتُ أريد أن أصدّق، أو ربّما لم أستطع أن أصدّق.

أردف قائلاً: «لم يبقَ عليّ سوى هذه المحاضرة. وبعد ذلك، تحلّ عطلة ٨ ديسمبر (كانون الأول) الخاصة بعيد «الحبل بلا دنس». وعندها يجب أن أقصد الجبل. يجب أن أطلعك على شيء ما».

كان ذلك الرجل اللامع الذي يتحدّث عن اللحظات السحرية

واقفاً أمامي، يتصرَّفُ بما لا يمليه الحسُّ السليم. كان مندفعاً بتهوّر، فاقد الثقة بنفسه، مغدقاً بالعروض الغامضة. وكنتُ حزينة لرؤيته على هذه الحال.

فتحت الباب، وترجّلت من السيارة، ثمَّ اتّكأت على زجاج النافذة. ولبثت على هذا النحو أتطلّع إلى جنبات الجادَّة شبه المقفرة. ثمّ أشعلت سيكارة، وبذلت ما بوسعي لكي لا أفكّر في شيء.

كنت أستطيع أن أزعم أو أتظاهر بأني لم أفهم. كنت أستطيع أن أحاول إقناع نفسي بأن ذلك حقّاً هو عَرَض يتقدّم به صديق إلى صديقة طفولته. لعلّه سافر طويلاً، فراحت الأمور تختلط في ذهنه.

ولعلّي كنتُ، أنا نفسي، أبالغ.

ترجّل بدوره، واتّكأ بجانبي. وردّد قائلاً:

«أود فعلاً أن تبقي لسماع محاضرة هذا المساء. ولكن إذا كنتِ لا تستطيعين. فسوف أتفهّم ذلك».

وهكذا. دارت الدنيا دورة كاملة لتعود إلى نقطة البداية، لم يكن شيءٌ ممّا ظننته. ليس مصرّاً على شيء، وها هو مستعدّ لأن يدعني أرحل مجدّداً. من المؤكّد أن رجلاً عاشقاً لن يتصرّف على هذا النحو.

شعرتُ بأني بلهاء. وفي الوقت نفسه أشعرني ذلك بالارتياح. طبعاً، كان بإمكاني أن أبقى ليوم واحد على الأقل. فنتناول طعام العشاء معاً ونسكر قليلاً، وهذا ما لم يتح لنا أن نفعله أطفالاً. ثمّ إنها كانت فرصة سانحة لنسيان الحماقات التي راودت أفكاري منذ قليل، ولكسر الجليد الذي بقي حاجزاً بيننا طوال الرحلة من مدريد.

يوم واحد ليس مسألة كبيرة. وسيكون لديّ، على الأقل، ما أحكيه لأصدقائي.

قلتُ على سبيلِ الدعابة: «سريران مزدوجان، أليس كذلك؟». وأنت مَنْ سيسدّد حساب العشاء، لأني، أنا، ما زلت طالبة ومفلسة».

تركنا حقائبنا في غرفة الفندق، وقصدنا المكان الذي ستُلقى فيه المحاضرة، سيراً على الأقدام. ولمّا وصلنا إليه مبكرين، عرّجنا على أحد المقاهي لتناول فنجان قهوة.

قال، وهو يضع في يدي جراباً صغيراً أحمر: «أريدُ أن أعطيكِ شيئاً».

فتحته على الفور، وكان في داخله مدالية قديمة مكسوّة بالصدأ، حفر على وجهٍ منها «سيّدة النعمة»، وعلى الآخر «قلب يسوع المقدّس».

قال حين انتبه إلى الدهشة التي ارتسمت على وجهي: «كانت لكِ».

عاود قلبي بثّه لشارات الإنذار. واستغرق هو في الحديث:

«ذات يوم، وكان يوماً خريفياً، مثل يومنا هذا، ولا بدّ أننا كنّا في العاشرة من عمرنا، جلسنا معاً في تلك الساحة التي تظلّلها السنديانة الكبيرة. وكنت أهمّ بنطق ما ردّدته في سرّي مراراً وتكراراً، خلال أسابيع وأسابيع. وما إن صمّمتُ على القول، حتى أخبرتني أنّكِ فقدتِ مداليتك في كنيسة القديس «ساتوريو» الصغيرة، وطلبتِ مني أن أذهب لأحضرها».

كنت أذكر جيداً. ربّاه، كم أذكر جيّداً...

وتابع قائلاً:

«لقد عثرت عليها. ولكن حين عدت إلى الساحة، كنتُ قد فقدت جرأتي على النطق بالكلمات التي طالما ردّدتها في سرّي. وعندها عاهدت نفسي على أن أعيد لك المدالية فقط في اليوم الذي

أستطيع فيه أن أكمل العبارة التي هممت بنطقها قبل عشرين عاماً. لطالما حاولت أن أنسى، لكنّ العبارة بقيت ماثلة في ذهني. وما عدت أقوى على العيش، وهي ماثلة على هذا النحو».

توقّف عن ارتشاف قهوته؛ أشعل سيكارة، ولبث بعض الوقت مستغرقاً في تأمُّل السقف. ثمَّ التفت نحوي:

«إنها عبارة بسيطة. أحبّك».

كان يقول:

أحياناً نكون عرضة لشعور بالحزن لا نملك أن نتغلّب عليه. ندرك أن اللحظة السحرية لذلك النهار قد ولّت، ولم نفعل شيئاً. عندئذٍ تخبّىء الحياة سحرها وفنّها.

يجب أن نصغي إلى الطفل الذي كنّاه ذات يوم، والذي ما زال موجوداً فينا. فذلك الطفل يعلم ما هي اللحظات السحرية. دائماً نستطيع أن نكتم بكاءه. لكننا لا نستطيع أن نُسكت صوته.

ذاك الطفل الذي كنّاه ذات يوم يبقى حاضراً. طوبى للأطفال، لهم ملكوت السموات.

إذا كنا لا نولد من جديد، وإذا كنّا عاجزين عن النظر مجدّداً إلى الحياة ببراءة الطفولة وحماستها، فهذا يعني أن الحياة فقدت معناها.

هناك طرقٌ عديدة للانتحار. فأولئك الذين يحاولون قتل جسدهم، إنّما يسيئون إلى سنّة الله. وأولئك الذين يحاولون قتل روحهم إنما يسيئون، هم أيضاً، إلى سنّة الله، وإن كانت جريمتهم خافيةً عن أعين البشر.

فلنصغِ إلى ما يقوله الطفل الذي ما زال حيّاً في قلوبنا. فلا نخجلنّ به، ولا ندعه فريسة الخوف، لأنه وحيد، ولأننا أبداً لا نصغي إليه، تقريباً.

لنأذن له أن يمسك بيديه عنان وجودنا. فذاك الطفل يعلم يقيناً أنّ اليوم مختلف عن اليوم الذي سيليه.

لنبذل ما بوسعنا لكي يشعر مجدّداً بأنه محبوب. ولنسعده، حتى لو اقتضى ذلك أن نتصرّف خلافاً لما تعوّدناه، حتى لو بدا ما نفعله حمقاً في أعين الآخرين.

أذكروا جيداً أن حكمة البشر هي غثّةٌ أمام الربّ. وإنْ أصغينا إلى الطفل الذي يسكن روحنا، سوف تبرق عيوننا مجدّداً. وإنْ لم نفقد الصلة بذاك الطفل، لن نفقد الصلة بالحياة.

كانت الألوان من حولي قد شرعت تستحيلُ ألواناً أكثر حدّة. وتنبّهتُ إلى أني صرتُ أتكلم بصوتٍ أعلى، وأني أحدث مقداراً أكبر من الجلبة حين أضع كاسي على الطاولة.

كانت مجموعة من نحو اثني عشر شخصاً، قصدت المكان نفسه لتناول طعام العشاء، إثر انتهاء المحاضرة. وكان الجميع يتحدثون دفعةً واحدة. أما أنا فاصغي متبسّمة، متبسّمةً لأنها ليست مجرّد سهرة اعتيادية مثل سواها، بل هي، منذ سنوات طويلة، الأولى التي لم أعدَّ لها مُسبقاً.

وأية غبطة!

عندما صمّمت على الذهاب إلى مدريد، كنتُ مالكةً زمام مشاعري وأفعالي. ثم فجأة تغيَّر كلّ شيء. وإذا بي في مدينة لم أطأها من قبل، وإن كانت لا تبعد إلا مسافة ثلاث ساعات من مسقط رأسي. وإذا بي جالسة إلى هذه الطاولة التي لا أعرف أحداً ممّن جلسوا إليها، مع أن الجميع يتحدّثون إليَّ وكأنني صديقة لهم منذ زمن بعيد. وإذا بي مذهولة لقدرتي على التحدّث، والشراب وتزجية الوقت برفقة أولئك الناس.

كنتُ هناك، لأن الحياة فجأةً وهبتني الحياة. ولم أكن أشعر بأي إحساس بالذنب أو الخوف أو الخجل. وكنت كلما اقتربت منه، وأصغيت إلى كلامه، أزداد اقتناعاً بأنه على حق: هناك هنيهات ينبغي للمرء فيها أن يجازف، وأن يقوم بأمورٍ جنونية.

قلت في سرّي: «إني أقضي أياماً تلو أيام منكبة على تلك الكتب والدفاتر، باذلة ما لا يطيقه بشر من الجهد، لكي أصنع قيودي بنفسي. لم أرغب في تلك الوظيفة؟ ما الذي ساجنيه منها كإنسان أو كامرأة؟».

«لا شيء. لم أر النور لأقضي حياتي وراء مكتب، أعين القضاة على صوغ مرافعاتهم ومذكّراتهم.

«لا، يجب ألّا أنظر إلى حياتي على هذا النحو. ويجب أن أعود إلى هناك عند نهاية الأسبوع».

لا بدَّ أن ما راودني من أفكار إنما كان بتأثير النبيذ. ففي آخر الأمر مَنْ لا يعمل لا ياكل.

«كلّ هذا ليس سوى حلم. وسينتهي». ولكن حتّام يمكنني أن أطيل أمده؟ وللمرة الأولى منذ التقيته، فكّرت في أن أصحبه إلى الجبل. ألم نكن على مشارف عطلة؟

سألتني امرأة جميلة كانت جالسةً إلى مائدتنا:

ـــ من أنت؟

ـــ صديقة طفولة.

ـــ وهل كان يتعاطى مثل هذه الأمور منذ كان طفلاً.

ـــ أية أمور؟

بدا لي أن الأحاديث، حول الطاولات، أصبحت أقلّ صخباً.

قالت المرأة بإلحاح: «تعلمين جيداً... المعجزات».

أجبتها من دون أن أدرك ما الذي كانت تعنيه: «لطالما كان بارعاً في الكلام، حتى في ذلك الحين».

ضحك الجميع. وضحك هو كذلك، ولم أدر لماذا. غير أن النبيذ كان قد حباني بتلقائيةٍ، أعفتني من واجب تدارك كل شيء. فسكتُّ، وتلفتُّ من حولي وتفوّهْتُ بما لا أدري ما هو، وسرعان ما نسيته. ثمّ عاودتُ التفكير في أيام العطلة المقبلة.

كان وجودي بينهم أمراً يدعو إلى البهجة، خصوصاً أني تعرّفتُ إلى أناس جدد. كانوا يتحدثون بموضوعات جادّة وهم يتبادلون المزاح، وكنت أشعر بأني أشارك في ما يجري في العالم من حولي. ففي ذلك المساء على الأقل، لم أكن مجرّد امرأة تشاهد حياتها عبر شاشة التلفزيون وعبر الصحف. وسيكون لديّ بالتأكيد الكثير الكثير لكي أحكيه في سرقسطة. فإن قبلت الدعوة لقضاء عطلة الحبل بلا دنس، فسوف يمكنني أن أحيا سنة «كاملة» على ذكريات جديدة.

قلت في سرّي: «كان محقّاً جدّاً في ألا يعير انتباهاً لما حكيته عن صوريا. وأشفقت على نفسي: فمنذ سنواتٍ، وحافظة ذاكرتي لا تحفظ إلّا الحكايات نفسها».

قال لي رجل أبيض الشعر، وهو يملأ كاسي: «اشربي قليلاً بعد».

شربت وفكّرت في أنه لن يكون في جعبتي الكثير ممّا قد أحكيه لأولادي وأحفادي.

همس قائلاً بحيث لم يسمعه أحد سواي: «إني أتّكلُ عليك، سوف نصل إلى فرنسا».

كان النبيذ يمنحني تلقائية أكبر في التعبير:

ـــ شَرْطي الوحيد أن توضح لي أمراً.

ـــ ما هو؟

ـــ ما بحت لي به قبل المحاضرة، في المقهى.

ـــ الميدالية؟

أجبته محدّقة مباشرةً في عينيه، باذلة ما أمكنني لكي لا أبدو ثملة:

ـــ لا، ما قلته في تلك اللحظة.

ـــ سوف نتحدّث بهذا الشأن لاحقاً.

كان بوحه بحبّه لي. إذ لم يتسنَّ لنا أن نتحدث مجدداً عن الأمر.

قلت:

ـ إذا كنت ترغب في اصطحابي، فيجب أن تصغي إليّ.

ـ لا أريد التحدّث بالأمر هنا. أما الآن، فإنه وقت لهوٍ.

قلت بإلحاح:

ـ لقد رحلت باكراً جداً عن صوريا، وأنا لستُ سوى صلة لك ببلدك. لقد أعنتك على البقاءِ قريباً من جذورك، وهذا ما أمدّك بالقوة لمتابعة طريقك. لكنَّ الأمر ينتهي عند هذا الحدّ. من غير الممكن أن يكون هناك حب. على الإطلاق.

أصغى إليَّ من دون أن يُعلّق، ولو بكلمة، على ما أقول. ثمَّ ناداه أحدهم ليسأله عن رأيه في مسألة ما، فلم أتمكّن من استكمال المناقشة.

قلت في سرّي: «على الأقل كنت واضحة. فمثل هذا الحبّ لا وجود له إلّا في القصص الخرافية. ذلك أن الحبّ، في الحياة الحقّة، يحتاج إلى أن يكون ممكناً. حتّى لو لم يكن متبادلاً على الفور، فإنّه لا يبقى إلّا إذا كان ثمة أمل، مهما بدا نائياً، بكسب ودّ المحبوب. أما غير ذلك، فهو من نسج الخيال، ليس إلّا».

وكأنّه أدرك ما يدور في رأسي من أفكار، رفع كأسه، من طرف الطاولة المقابل، باتجاهي:

ـ نخب الحب!

هو أيضاً كان ثملاً بعض الشيء، فأردتُ أن أنتهز الفرصة:

ـ نخب الحكماء الذي يسعهم أن يدركوا أن بعض الحبِّ ليس أكثر من صَبْيَنات!

ـ الحكيمُ ليس حكيماً إلّا لأنّه يحب والأحمقُ ليسَ أحمقَ إلّا لأنه يزعم أنه يفهم الحبّ.

الآخرون، حول الطاولة، سمعوا، وسرعان ما دار نقاش صاخب حول الحبّ. جميعهم كانت لهم آراؤهم الراسخة بهذا الشأن، ونافح كلّ منهم عن وجهة نظره باستماتة. واقتضى الأمر عدداً من قناني النبيذ، لكي يعود الهدوء إلى الجلسة. وفي آخر المطاف، لاحظ أحدهم أن الوقت قد تأخّر، وأنّ مالك المطعم يريد أن يقفل أبوابه.

صاح أحد ما من طاولةٍ مجاورة: «أمامنا خمسة أيام من العطلة؛ وإذا كان مالك المطعم يريد أن يُقفل أبوابه، فلأنكم تتحدّثون بأمور رصينة!».

ضحك الجميع، ما عداه.

سألَ الرجلَ الثمل الجالس إلى الطاولة المجاورة: «وفي أي مكان يُسمح لنا أن نتحدث بأمور رصينة؟».

أجاب الرجل: «في الكنيسة!». وهذه المرّة عمَّ الضحكُ أجواء المطعم كلّها.

نهض من مكانه. ظننت أنّه سيفتعل شجاراً؛ فقد كنا استعدنا جميعاً روحَ مراهقتنا، وزمان المشاجرات، والقُبَل، والمداعبات المحرّمة، والموسيقى الصاخبة والسرعة الفائقة التي كانت لا تخلو منها سهرة جديرة بهذا الاسم. لكنّه اكتفى بأن أمسك يدي متّجهاً نحو الباب:

«الأفضل أن نغادر. لقد تأخّر الوقت».

المطر يهطل غزيراً على بيلباو، ويهطل غزيراً على العالم. من يُحبّ يحتاج إلى أن يعرف كيف يُضلّ نفسه وكيف يعثر عليها.

يتمكّن، هو، في هذه اللحظة أن يوازن بين الأمرين. إنّه مَرِح، يُغني، في طريق عودتنا إلى الفندق:

Son los locos que inventaron el amor.[1]

أشعر بأني ما زلت تحت تأثير النبيذ والألوان الصارخة، ولكني بدأت أستعيد توازني تدريجاً. ينبغي أن أبقى ممسكة بزمام الموقف إن أردت سلوكَ الدرب. وسيكون يسيراً عليَّ أن أبقى ممسكة بزمام الأمور، ما دمت غير عاشقة. فمن يكون قادراً على التحكّم بقلبه يكون قادراً على غزو العالم.

تقول الأغنية:

Con un poema y un trombón

a develarte el corazón[2]

قلت في سرّي: «أودُّ ألّا أتحكّم بقلبي». لو كنت أستطيع أن أستسلم، ولو لعطلةِ أسبوع من الزمان، لكان لهذا المطر الذي ينهمر

---

(١) «المعتوهون هم الذين اخترعوا الحب».

(٢) «بقصيدة وبوق سوف يُذهبان قلبك».

على وجهي طعم آخر. ولو كان يسيراً أن نحبّ، لكان واحدنا في أحضان الآخر، ولحكت كلمات الأغنية حكايةً هي حكايتنا. لو لم أكن مجبرةً على العودة إلى سرقسطة، لوددتُ ألا يتبدّد تأثير الشرابِ إلى الأبد، ولكنتُ حرّةً في تقبيله، في ملامسته، وفي البوحِ، وفي سماع تلك العبارات التي يتبادلها العشّاقُ همساً.

لكن لا. لا أستطيع.

لا أريد.

تقول الأغنية:

Salgamos a volar, querida mía

بلى، سوف نرحل، سوفَ نُقلِع، بشروطي.

إنه لا يعلم، بعد، أني أقبل دعوته. لمَ المجازفة؟ لأني، في هذه اللحظة، ثملة، سئمة من أيامي المتشابهة كلّها.

غير أنّ هذا السأم سوف يزول. وما إن يزول حتى أودُّ أن أعود إلى سرقسطة، البلدة التي اخترتُ العيش فيها. فهناك تنتظرني دروسي، وامتحانات الإدارة العامّة أيضاً. وهناك زوج يجب أن أجده، ولن يكون ذلك بالأمر الشاق. حياة هانئة تنتظرني، وأولاد وأحفاد، ومصروف محسوب وعطلات سنوية. لا أدري ما مخاوفه هو، لكنني أدرك مخاوفي. لا أحتاج إلى المزيد منها، فما لديَّ منها إلى الآن يكفيني.

ما كنتُ لأغرم، بأية حال، برجلٍ مثله. أعرفه أكثر ممّا ينبغي؛ لقد عاش واحدنا بقرب الآخر لسنواتٍ طويلة، ولا أجهل شيئاً من مواضع ضعفه ومن مخاوفه. ولا أستطيع، مهما حاولت، أن أعجبَ به كما هي حال الآخرين.

أعلم أن الحبّ مثل السدود: إذا تُرك فيها شقٌّ ينسربُ منه خيطٌ من الماء، فلن يلبث الماءُ أن يحتَّ الجدران تدريجاً، ويأتي يوم لا يستطيع فيه أحدٌ أن يتحكَّم بقوّة التيار. وإذا انهارت الجدران

يستبدّ الحبّ طاغياً، ولا يعود ممكناً السؤال عمّا هو ممكن وعمّا هو ليس ممكناً، عمّا إذا كان ممكناً أم لا بقاء مَنْ نحبّ بقربنا... الحبّ هو فقدان السيطرة.

لا، لا أستطيع أن أدع الجدار عرضة للتشقق. ولو قليلاً.

تناهى صوتُ أحد الرجال:

ــ مهلاً!

كفّ عن الغناء. خفقُ خطوات مُسرعة يتردّد على الأرض المبلّلة.

قال، ممسكاً بساعدي:

ــ هيّا!

صاح الرجل قائلاً:

ــ تمهّلا! يجب أن أتحدّث إليكما!

راح يحثّ خطاه أكثر فأكثر.

ــ لسنا المعنيين بالأمر. هيّا، لنذهب إلى الفندق.

لكنّه كان ينادينا نحن: فلا أحد سوانا في الشارع. راح قلبي يخفق بسرعة وتلاشى تأثير الشراب على الفور. وقلت في سرّي إننا في بيلباو، أي في بلاد الباسك، حيث العمليات الإرهابية أكثر من معتادة. اقتربت الخطوات منّا.

ردّد قائلاً حاثاً خطاه أكثر فأكثر: «هيا!».

ولكن بعد فوات الأوان. وما لبث أن اعترض طريقنا خيال رجلٍ مبلّل بالمطر من رأسه حتى أخمص قدميه:

«توقّفا، رجاءً! حبّاً باللهِ توقّفا!».

كنت مذعورة، مُتلفّتة، أبحثُ بعيني عن سبيل للفرار، عن سيّارة شرطة تهرع الينا بأعجوبة. وبحركةٍ غريزية تشبّثت بذراعه، لكنّه أبعدَ يديّ:

«أرجوك! لقد بلغني أنك هنا. إني أحتاج إلى عونك. الأمر يتعلَّق بابني».

وجعلَ الرجلُ يبكي. وجثا على ركبتيه:

«أرجوك! أرجوك!».

شهق وأطرقَ مغمضاً عينيه. لهنيهاتٍ لبث صامتاً، فكنَّا نسمع وابلَ المطرِ ممزوجاً بالنحيب:

«اذهبي إلى الفندق، يا بيلار. ونامي. فلن أعود بالتأكيد قبل بزوغ الفجر».

الإثنين ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٣

الحبُّ ملئه الأشراك. عندما يهمّ بالظهور لا يتبدّى منه إلّا نوره، ولا يُتيح لنا أن نبصر الظلال التي يولّدها هذا النور.

قال:

ــ انظري إلى هذه الأرض التي تحوطنا. لنستلقِ على الأرض لكي نتحسّس قلب الكوكب النابض.

ــ فيما بعد. لا أريد أن تتسخ السترة الوحيدة التي أحضرتها معي.

قمنا بنزهات طويلة في التلال المكسوّة بأشجار الزيتون. وبعد مطر البارحة في بيلباو، كانت الشمس تولّد انطباعاً لديّ بأني أحيا في حلم. لم أحضر معي نظّارة سوداء. لم أحضر شيئاً البتّة، لأنه كان من المفترض أن أعود إلى سرقسطة في اليوم ذاته. فكان عليّ أن أنام مرتديةً أحد قمصانه، كما اشتريت بلوزة من متجر قريب من الفندق، لكي يتسنّى لي على الأقل أن أغسل تلك التي كنت أرتديها.

قلت على سبيل المزاح: «لا بدّ أنك مللت رؤيتي دائماً في الملابس نفسها»، لكي أرى إذا كانت تلك العبارة التافهة سوف تعيدني إلى الواقع.

ــ إني سعيدٌ بوجودك هنا.

لم يتطرّق مجدّداً إلى موضوع الحبّ منذ أن أعطاني الدالية، لكنَّه مَرِحٌ رائق المزاج، كأنّه، مجدّداً، في الثامنة عشرة من عمره. يسيرُ بجنبي عائماً، هو أيضاً، في تلك الإشراقة الصباحية.

سألت، وأنا أشيرُ بيدي إلى جبال البيرنيه الباديةِ في الأفق:

ــ ما الذي ينبغي أن تفعله هناك؟

ــ على السفح المقابل من هذه الجبال تقع فرنسا.

ــ إني أعرف جيّداً جغرافيا بلدي. ما أريد أن أعرفه هو لِمَ ينبغي أن نذهب إلى هناك؟

لبث لبعض الوقت صامتاً، مكتفياً بتلك الابتسامة المرتسمة على شفتيه:

ــ لكي تشاهدي بيتاً، قد يثير اهتمامك.

ــ إذا كان غرضك أن تؤدّي دور سمسار عقاري. فَدَعْكَ من ذلك على الفور. إني لا أملك مالاً.

سيّان عندي أن أقصد بلدة في مقاطعة النافاز أو أن أذهب إلى فرنسا. ما لم أكن راغبةً فيه هو قضاء الأعياد في سرقسطة.

كان ذهني يُسرّ إلى قلبي قائلاً: «أرأيتِ؟ أنت مسرورة لأنك قبلتِ الدعوة. لقد تغيّرت من دون أن تدري».

ولكن لا، لم أتغيّر على الإطلاق. كلُّ ما في الأمر هو أنني أشعر ببعض الاسترخاء.

ــ انظر إلى هذه الحَصيات على الأرض.

ــ «إنها مدوّرة بلا حوافٍ ناتئة، ملساء. كأنها حصيات شاطئ. مع أن البحر لم يصل يوماً هنا، إلى أرياف مقاطعة النافاز.

«إنها أقدام المزارعين، أقدام المسافرين، أقدام المغامرين، هي التي نحتت هذه الأحجار. لقد تغيّرت كما تغيّر المسافرون».

ــ أكلّ ما تعرفه قد تعلمته من أسفارك؟

ــ لا. إنها معجزات «الوحي».

لم أفهم، كما أني لم أسعَ أيضاً إلى تعميق معنى كلماته. كنتُ مشبّعة بنور الشمس، بمنظر الريفِ والجبالِ البادية في الأفق.

سألت:

ـ إلى أين سنذهب الآن؟

ـ لن نذهب إلى أي مكان. سوف نستفيد من الصباح والشمس. وبعد ذلك أمامنا مسافة طويلة لنقطعها بالسيّارة.

وبعد تردّد سأل:

ـ أما زلتِ تحتفظين بالمدالية؟

أشرت برأسي إيجاباً ورحت أحث الخطى، لأنني أريد أن يتطرق ثانيةً إلى هذا الموضوع، فمن شأنه لو فعل أن يفسد طلاقة هذه الصبيحة ومتعتها.

لاحت أمامنا بلدة. إنها، على غرار مدن القرون الوسطى، تقع عند قمّة هضبة، وبإمكاني أن ألمح، من بعيد، جرس الكنيسة وخرائب قصر. فاقترحت قائلة:

«لنذهب إلى هناك».

بدا متردّداً لكنّه، في آخر الأمر، وافق. على الطريق المفضية إلى البلدة كنيسة صغيرة، وددت دخولها. ما عدتُ أعرف كيف يصلّون، غير أن صمت الكنائس ما زال يُشعرني بالدعة.

قلت في سرّي: «لا تشعري بالذنب. إذا كان عاشقاً فهذه مشكلته هو».

سألني عن المدالية. وأعلم جيّداً لماذا فعل: فقد كان يأمل بأن نتطرق مجدّداً إلى الحديث الذي جرى بيننا في المقهى. وفي الوقت نفسه، يخشى أن يسمع ما لا يرغب في سماعه، لذلك لا يذهب بعيداً في خوض هذا الموضوع مجدّداً.

من الجائز أنّه يحبني حقاً. غير أننا سنتمكّن من تحويل هذا الحبّ إلى شيء مختلف تماماً، إلى شيء أعمق.

قلت في سرّي: «قول سخيف. ما من شيء أعمق من الحب. في حكايات الأطفال الخرافية، يكفي أن تقبّل الأميراتُ الضفادعَ لكي تتحوَّل أمراء فاتنين. وفي الحياة الحقّة، تقبّل الأميرات الأمراء فيستحيل هؤلاء ضفادع».

إثر نصف ساعة أو أقلّ قليلاً من السير، وصلنا إلى الكنيسة الصغيرة. اقتعد رجل عجوز إحدى درجات سلّمها. إنّه أوّل من نلتقيه منذ أن سلكنا الطريق، لأننا في أواخر فصل الخريف، وقد تركت الحقول مجنّداً إلى عناية الربّ الذي يُخصب الأرض ببركته ويتيح للإنسان أن يُحصّل منها رزقه بعرق جبينه.

قال العجوز:

ـــ صباح الخير.

ـــ صباح الخير.

ـــ ما اسم هذه البلدة؟

ـــ سان مارتن دي أوُنْه.

قلت:

ـــ أوُنْه؟ كأنه اسم جنّي!

لم يفطن العجوز إلى وجهِ الدعابة في كلامي. فإذا بي، وقد شعرت بالحرج، أتقدّم حتى باب الكنيسة.

قال العجوز: «لن تتمكني من الدخول. إنهم يُقفلون عند الظهر. إنْ شئتما بإمكانكما العودة عند الساعة الرابعة».

كان الباب مفتوحاً، لكنني لم أرَ جيّداً ما في الداخل بسبب العتمة المخيّمة. فقلت:

ـــ لدقيقة واحدة فقط. أريد أن أتلو صلاة.

ـــ إني آسف جدّاً، لكن الكنيسة مقفلة.

سمع حديثي مع الرجل، ولزم الصمت ثم قطعه:

ـــ حسناً لنغادر إذاً. فلا جدوى من متابعة الحديث.

واصل تحديقه بي، لكن نظرته كانت شاغرة، بعيدة.

سألني: «أما كنتِ راغبة في دخول الكنيسة؟».

علمت أنه لم يستحسن تصرُّفي. ولا بدّ أنه وجدني ضعيفة، جبانة، عاجزةً عن النضال في سبيل ما أرغب فيه. ولا حاجة إلى قبلة؛ الأميرة تستحيل ضفدعاً.

قلت: «تذكَّر ما حدث بالأمس. لقد أنهيت المحادثة لأنَّك لم ترد أن تخوض جدالاً. والآن، تأخذ عليَّ أني أفعل مثلما فعلت أنت».

رمقنا العجوز بنظراتٍ هادئة. لا بدَّ أنّه مغتبطٌ لأنّ أمراً ما يحدث، هناك، أمام ناظريه، في مكان تتعاقب فيه المواقيت، صباحاً وما بعد الظهر ومساءً، متشابهة.

قال مخاطباً العجوز: باب الكنيسة مفتوح، وإذا كنت تريد مالاً فبإمكاننا أن نعطيك القليل منه. لكنّها تريد أن ترى الكنيسة.

ـــ إنها ليست مواقيت الزيارة.

ـــ وإن يكن، سوف ندخل.

أمسك ذراعي، ودخل برفقتي.

راح قلبي يخفق بسرعة. ماذا لو غضب العجوز واستدعى الشرطة وأفسد علينا نزهتنا.

ـــ لِمَ تفعل ذلك؟

ـــ لأنَّكِ ترغبين في دخول هذه الكنيسة.

غير أنّ هذا الجدال وتصرّفي أنا بدّدا سحر صباحٍ شبه مثالي.

بقيت أذني مصغية بانتباه إلى ما يجري في الخارج. وفي كلِّ لحظة، أتخيّل العجوز مغادراً، ووصول الشرطة البلدية. إنه الدخول

عنوة إلى كنيسة. إننا لصوص. إننا نقترف أحد المنوعات، ونخالف القانون. ألم يقل العجوز إن الكنيسة مقفلة، وإن مواقيت الزيارة قد انتهت. إنه عجوز بائس غير قادر على الحيلولة دون دخولنا، وسوف تعاملنا الشرطة بشدّة أكبر، لأننا لم نبدِ احتراماً كافياً.

لبثت في الداخل ما يكفي لأبرهن على ارتياحي التام. وقلبي يخفق بقوة حتى إني خشيت أن يسمع ضرباته.

قلت بمضي ما حسبتُ أنه كافٍ لتلاوة «السلام عليك يا مريم»:

ـــ بإمكاننا أن نغادر الآن.

ـــ لا تخافي يا بيلار. لست هنا لتؤدي دوراً صامتاً.

لم أكن راغبة في أن تتحوّل مشكلتي مع العجوز إلى مشكلة معه. لذا كان ينبغي أن أبقى هادئة.

ـــ لا أفهم ما تقصد؟

ـــ بعض الناس مختلفٌ مع أحد ما، أو مختلف مع ذاته، أو مختلف مع الحياة. لذا يؤدي دوراً في مسرحية يؤلّف حبكتها وفقاً لحرماناته.

ـــ أعرف العديد من الناس كما تقول. وأعلم جيّداً ما تقصد.

ـــ «لكن المأساة أنّ هؤلاء الناس لا يستطيعون أداء المسرحية بمفردهم. فيعمدون إلى استدعاء ممثلين آخرين.

«وهذا بالضبط ما فعله ذاك الكائن البائس خارج الكنيسة. كان يريد أن يثأر لنفسه، واختارنا لهذا الغرض. لو أننا رضخنا لمشيئته، لكنّا الآن نشعر بالندم، ولشعرنا بأننا خُدعنا. لكنّا قبلنا أن نصبح جزءاً من وجوده البائس وحرماناته.

«كانت عدوانية هذا الرجل بادية للعيان، فكان يسيراً علينا ألّا ندخل في لعبته. لكنّ آخرين سواه، يطلبون منّا أحياناً أن نكون مجرّد ممثلين صامتين عندما يتصرفون بوصفهم ضحايا ويشكون مظالم الحياة. ويفرضون علينا أن نوافقهم، وأن ننحاز إلى صفّهم».

حذق مباشرةً في عيني، وتابع:

«حذارا عندما ندخل في لعبتهم، نخرج منها خاسرين دوماً».

كان محقاً. فبرغم كل شيء، فإنني لم أشعر بارتياح داخل هذه الكنيسة.

«لقد صلّيت. فعلت ما كنت أودّ فعله. بإمكاننا أن نغادر، الآن».

غادرنا الكنيسة. كانْ ذلك التباين بين الظلّ المعتم وأشعة الشمس الباهرة يغشي أبصاري لهنيهات. وما أن تعوّدت عيناي الضوءَ مجدّداً، حتى انتبهت إلى أن الرجل العجوز لم يعد هناك.

قال، وهو يسير باتجاه البلدة:

ــ «هيّا، إنه وقت الغداء».

خلال الغذاء، احتسيت كاسين من النبيذ. لم أشرب مثل هذا المقدار في حياتي. لقد تحوّلت مدمنة كحول.

«يا للمبالغة!».

كان يتحدّث إلى النادل. وهكذا اكتشف أنّ عدداً من الآثار الرومانية موجودة في الجوار. حاولت أن أتتبع الحديث بينهما، غير أني لم أفلح في إخفاء الكدر الذي ألمّ بي. الأميرة استحالت ضفدعاً. ما الفرق؟ لِمَ تراني مجبرةً أن أبرهن على أي شيء، إذا كنت لا أسعى وراء شيء، لا وراء رجل ولا وراء حب؟

قلت في سرّي: «كنت أدرك ذلك. كنت أعلم أني بذلك أخلّ بتوازن عالمي. لقد حذّرني دماغي، لكن قلبي لم يشأ أن يصغي إلى النصيحة».

كان ينبغي أن أبذل ثمناً غالياً لأحصل على القليل الذي أملكه، أن أهمل ما لا يُحصىٰ ممّا كنت أرغب فيه، أن أجتنب ما لا يُحصى من الدروب التي شُقَّت أمامي. لقد ضحّيت بأحلامي سعياً وراء حلمٍ أسمى: راحة البال. ولا أرغب في التخلّي عن ذلك.

قال مقاطعاً حديثه مع النادل:

ـــ أراكِ مشدودة الأعصاب.

ـــ أجل، هذا صحيح. أعتقد أن ذلك العجوز قد ذهب لاستدعاء الشرطة. وأعتقد أن هذه البلدة صغيرة جداً، وأنهم عالمون بمكاننا. وأعتقد أن إصرارك على تناولنا الغذاء هنا قد يُنهي عطلتنا.

لم يكفّ عن تدوير كاس المياه المعدنية بين أصابع يديه. لا بدّ أنه أدرك أن هذا ليس السبب الفعلي، فالحقيقة أنني كنت أشعر بالخجل. لِمَ نصنع ما نصنعه بحياتنا؟ لِمَ نرى ذرّة الغبار التي في عيننا، وليس الجبال والحقول وأشجار الزيتون؟

قال: «إصغي جيّداً. لن يحصل شيءٌ من هذا القبيل. لقد عاد العجوز إلى بيته، ولا شك في أنه لا يذكر شيئاً مما جرى. صدقيني».

قلت في سرّي: «إن هذا ليس سبب توتّري، أيها الأحمق!».

ـــ اصغي لما يقوله قلبك.

ـــ هذا ما أفعله بالضبط. وأفضّل أن أغادر. إني لا أشعر بارتياح هنا.

ـــ كفّي عن الشراب. فالشراب لن يجديك نفعاً.

حتّى اللحظة، كنت متمكّنة من تمالك نفسي. وكان الأجدر بي، آنذاك، أن أبوح بكل ما يعتمل في قلبي:

ـــ يُخيّل إليك أنك تعلم كلّ شيء. تحدّثنا عن اللحظات السحرية، عن الطفولة المنسية التي تحيا في أعماقِ كلٍّ منا... إني لا أرى ما الذي تفعله بقربي.

ضحك قائلاً:

ـــ إني أبدي إعجابي. إعجابي بالصراع الذي تخوضينه ضدّ قلبك.

ـــ أي صراع؟

ـــ لا شيء.

لكنّي أدركت جيداً ما الذي يقصده:

ـــ لا تصدّق أوهامك. إن شئت الكلام فلنتكلّم. أنت مخطئ بتقدير مشاعري.

كفّ عن تدوير كاسه، وهو ينظر إليّ مباشرة:

ـــ لا. أعلم أنك لا تحبينني.

على الأثر، ازددتُ تشوّشاً واضطراباً.

أردف قائلاً:

«لكني لن أكفّ عن المحاولة. هناك أمور في الحياة تستحق عناء أن نقاتل من أجلها حتى النهاية».

لم أجد ما أجيبه به.

«وأنتِ تستحقين العناء».

أشحت بنظري عنه، حاولت التظاهر بأني مهتمة بديكورات المطعم. كنتُ أشعر بأني ضفدع، فاجلني أميرة مجنّداً. قلت في سرّي، متشاغلة بتأمّل لوحة لمراكب وصيّادين: «أريد أن أصدّق كلامه. لن يغيّر ذلك في الأمر شيئاً، لكني، على الأقل، لن أشعر بأني على هذا القدر من الهشاشة، بأني مثيرة للشفقة إلى هذا الحدّ».

قلت: «اغفر لي ما أبديته من عدوانية».

ابتسم. نادى النادل وسدّد الحساب.

في طريق عودتنا، شعرت بأني ما زلت مضطربة ربّما بسبب الشمس؟ ولكن لا، نحن في فصل الخريف، والشمس أخفّ وطأة من المعتاد. الرجل العجوز إذاً؟ لكنّه غادر حياتي منذ وقت غير قصير. ربّما كان السَّبب كلّ ما هو جديد. فالحذاء الجديد يزعج. والحياة ليست مختلفة: تأخذنا على حين غرّة، وتُرغمنا على السير باتجاه المجهول، عندما نكون غير راغبين في ذلك، عندما لا نكون في حاجة إلى ذلك.

حاولت أن أستغرق في تأمل المنظر، لكني ما عدت قادرة على رؤية حقول الزيتون، والبلدة عند قمة الهضبة، والكنيسة التي يقف أمامها الرجل العجوز. لا شيء من هذا كلّه مألوفٌ لدي.

أستعدت في ذاكرتي سهرة الأمس، واللحن الذي كان يدندنه:

Las tardecitas de Buenos Aires tienen este no sé...

qué sé yo?

Viste, Salí de tu casa por Arenales[1]

لِمَ بوينس أيرس في حين أننا كنّا في بيلباو؟ وما هو شارع أرينالس هذا؟ ما الذي كان يريده؟ سألته:

ـ تلك الأغنية التي أنشدتها أمسِ، ما هي بالضبط؟

ـ Balada para un loco[2]، لمَ لِمْ تسالي إلّا اليوم؟

ـ لا لشيء.

ولكن بلى، هناك سبب. أعلم أنه أنشد تلك الأغنية، لأنها فخ. لقد حفَّظني كلماتها غيباً، في الوقت الذي ينبغي فيه أن أحفظ غيباً عدداً لا يحصى من الأشياء، استعداداً لامتحاناتي. كان بإمكانه أن يختار أغنية مألوفة، سمعناها آلاف المرّات، لكنّه فضّل أغنية أجهلها.

إنه فخ. فبهذه الطريقة، كلّما سمعت هذا اللحن، فيما بعد، عبر الراديو أو عبر عزف أسطوانة، سوف أذكره، وأذكر بيلباو، وأذكر هذا الزمان الذي فيه استحال مجدداً خريف حياتي ربيعاً. سوف أذكر الحماسة والمغامرة والطفل الذي بُعِثَ ولا يعرفُ سوى الله من أين.

لقد خطَّط لكلّ هذا. إنَّه متبصِّر، وذو خبرة، خَبرَ الحياة ويعلم كيف يغزو قلب امرأة يرغب فيها.

قلت في سرّي: «إني أفقد عقلي. أحسب أنني أصبحت مدمنة كحول لأني أفرطت في الشرب قليلاً، خلال يومين متتالين. ويتهيّأ لي أنه يعرف كلّ الخيوط، إنه يسيطر عليَّ ويتحكَّم بي برقّته».

---

(١) «أمسيات بوينس أيرس فيها ما لا أدري ما هو... ولكن كيف أدري؟ لقد رأيت أني غادرتك سالكاً شارع آرينالس».

(٢) «أنشودة لمعتوه».

قال لي في المطعم: «إني معجب بالصراع الذي تخوضينه ضدّ قلبك».

لكنّه مخطئ. لأني خضت الصراع من قبل، وهزمت قلبي منذ زمن بعيد. لن أقع في غرامِ المستحيل. إني أعرف حدودي وطاقتي على احتمال الألم.

في طريق عودتنا إلى السيارة، طلبت منه أن يقول شيئاً.

ـ ماذا أقول؟

ـ أي شيء. حدِّثني.

فاسترسل في سرد ظهورات العذراء مريم في فاطيما. أجهل لِمَ يثير هذا الموضوع، غير أن قصّة الرعاة الثلاثة هذه هي خير ما يُلهي.

شيئاً فشيئاً عاود قلبي الهدوء. بلى، أعرف حدودي، وأعرفُ كيف أتمالك نفسي.

وصلنا ليلاً في كنفِ ضبابٍ كان من الكثافة، بحيث حَجَبَ كلَّ شيءٍ من حولنا. وبالكاد كنت أستطيع أن أُميّز أمامي ساحة صغيرة ومصباحَ إنارة وبضعة منازل قروسطية، شبه مضاءة بتلك الإنارة الصفراء، وبئراً.

قال مستثاراً: «الضباب! لقد وصلنا إلى سان سافان».

لم يعنِ الاسمُ لي شيئاً. غير أننا كنا قد أصبحنا في فرنسا، وكان هذا الأمر كافياً ليشعرني، أنا أيضاً، ببعض الإثارة.

ـــ لِمَ اخترت هذا المكان؟

أجاب ضاحكاً:

ـــ بسبب ذلك البيت الذي أودّ أن أبيعه لك. ولكني قطعت وعداً بأنني ساعود يوم عيد الحبل بلا دنس.

ـــ هنا؟

ـــ في الجوار القريب.

أوقف السيّارة. وعندما ترجّلنا منها، أمسك بيدي وشرعنا في السير.

قال: «لقد صار هذا المكان جزءاً من حياتي على نحوٍ غير متوقّع».

قلت في سرّي: «أنت أيضاً، هنا ظننت ذات يوم أني ضللت طريقي. والحقيقة هي أنني كنتُ قد وجدتها ثانية».

ـ إنك تتحدث بالألغاز.

ـ هنا أدركت كم كنت مشتاقاً إليك.

مجدداً رحت أتلفَّت من حولي، من دون أن أدرك لماذا:

ـ وما صلة هذا بطريقك؟

ـ سوف نتدبر لنا غرفة. الفندقان الوحيدان في هذه البلدة الصغيرة لا يفتحان أبوابهما إلّا خلال موسم الصيف. وبعد ذلك، سنقصد مطعماً جيّداً لتناول طعام العشاء. من دون قلق أو خوف من الشرطة، من دون أن نضطر إلى الهروبِ عَدْواً باتجاه السيّارة. وعندما يحلّ النبيذ عقدة لساننا، سوف نتكلّم طويلاً.

ضحكنا معاً. كنت قد بدأت أشعر بالاسترخاء. في طريقنا إلى هذا المكان، أدركت حجم الحماقات التي حشوت بها رأسي. وفيما كنا نجتاز سلسلة الجبال التي تفصل بين فرنسا وإسبانيا، تضرّعتُ إلى الله كيما يغسل روحي من التوتّر والخوف.

كنت قد ضقت ذرعاً بتصرُّفي مثل طفلة صغيرة، وبسلوكي المشابه لسلوك العديد من صديقاتي اللواتي يخشين الحبّ المستحيل من دون أن يعرفن بالضبط ما هو هذا «الحب المستحيل». وباستمراري على ذلك النحو، كنت سأفقد كلّ حَسَنةٍ قد توفرها هذه الأيام القليلة التي سأقضيها برفقته.

قلت في سرّي: «عليك بالحذر!. احذري صدعاً في جدار السدّ. فإنْ وُجد، فلن يقدر أحدٌ على رأبه».

قال: «لتشملنا العذراء، من الآن فصاعداً، برعايتها».

فلزمت الصمت.

ـ لِمَ لَمْ تقولي آمين؟

ـ لأني ما عدت أرى أهمية لأن أصلّي. لقد عشت زمناً كان فيه الدين جزءاً من وجودي، لكنّه صار اليوم من الماضي.

استدار على عقبيه، وعدنا أدراجنا باتجاه السيارة.

تابعت قائلة:

ـــ ما زلت أصلّي. لقد صلّيت خلال اجتيازنا البيرنيه بحكم العادة. لكني لست واثقة أنني ما زلت مؤمنة.

ـــ لمَ؟

ـــ لأني تألّمت كثيراً، ولم يسمع الله دعائي. لأني، مراراً في حياتي، حاولت أن أحب من أعماق قلبي، وفي آخر الأمر كان الحبّ يُداس بالأقدام مغدوراً. لو أن الله محبّة لوجب أن يُعنى أكثر بمشاعري.

ـــ الله محبة. ولكنّ السيّدة العذراء هي التي تفهم جيّداً مثل هذه الأمور.

جعلتُ أضحك. وعندما نظرتُ إليه، مجدّداً، وجدتُ أنه يرمقني بمنتهى الجدّية. لم يكن ما قاله دعابة.

أردف قائلاً:

ـــ العذراء تفهم سرّ العطاء الكلّي ولأنها أحبَّت وتألّمت، أعتقتنا من الألم. تماماً كما أعتقنا يسوع من الخطيئة.

ـــ يسوع كان ابن الله. أمّا العذراء، فقد كانت مجرّد امرأة خبيّت بنعمة أن تحمله في أحشائها.

كنت أودّ أن أستدرك تلك القهقهة المجلجلة التي أطلقتها رغماً عني، أن أفهمه بأني أحترم إيمانه. غير أن الإيمان والحب أمران لا يجوز الخوض في نقاشهما، خصوصاً في بلدة جميلة مثل هذه.

فتح باب صندوق السيارة، وأخرج حقائبنا منها. وعندما أردت أن أحمل عنه حقيبتي. ابتسم:

«دعيني أحمل حقيبتك».

قلت في سرّي: «منذ متى لم أحظ بمعاملةٍ كهذه؟».

طرقنا الباب الأوّل؛ لكنّ المرأة لا تؤجّر غرفاً. وعندما طرقنا الثاني لم يفتح أحد الباب. عند الباب الثالث، استقبلنا، بلطف، عجوز

قصير القامة ودود. ولكننا عندما ذهبنا لمعاينة الغرفة، وجدت أن ليس فيها سوى سرير واحد مزدوج. فرفضت.

وحالما خرجنا اقترحت عليه قائلة: «ربّما كان من الأفضل أن نقصد مدينة أكبر من هذه».

ـــ سوف نعثر على غرفة. أتعلمين ما هو تمرين «الآخر»؟ إنّه فصل من قصّة كُتبت منذ نحو قرن من الزمن، مؤلّفها...

قاطعته، فيما كنّا نجتاز الساحة الوحيدة في سان سافان:

ـــ دَع المؤلف وشأنه وأحكِ لي الحكاية.

ـــ «رجلٌ يلتقي صديقاً يعرفه منذ زمن طويل، ويبدو أنّه لم يعثر على طريقه مطلقاً. يقول في سرّه: «من الواجب أن أعطيه بعض المال». ولكنْ في ذلك المساء، يكتشف الرجل أن صديقه صار ثرياً، وصمّم على تسديد كلّ ديونه التي راكمها خلال الأعوام السابقة.

«يقصدان حانة تعوّدا ارتيادها، فيبادر الصديق إلى بذلِ الشرابِ لكلّ روّاد الحانة على حسابه. وعندما يُسأل عن يُسرهِ المفاجئ، يجيب أنّه حتى الأيام الأخيرة المنصرمة كان «يحيا الآخر».

«يسأل أحدهم:

« ـــ ولكن ما هو «الآخر»؟

« ـــ الآخر هو مَنْ لُقِّنتُ أن أكونه، سوى أنه ليس أنا. إنه يعتقد بأنّ البشر يجب أن يصرفوا أيامهم في التفكير في أفضل السبل لكسب المال، هذا إذا شاؤوا ألّا يتضوّروا جوعاً في شيخوختهم. ولفرط ما يفكّرون، ويخططون لا يدركون أنهم أحياء إلا عندما يؤذِن نهارُهم بالانقضاءِ. وإذ ذاك يكون الأوان قد فات.

« ـــ وأنت، مَنْ أنت؟

« ـــ أنا لستُ إلّا مثل أي واحد منا إذا أصغى إلى قلبه. رَجُلٌ يُفتتن بسرّ الحياة، مقبل على المعجزات، يغتبط وتستخفّه الحماسة

لأفعاله. لكن «الآخر» ببساطة ما كان، خشية أن يخيب أمله، ليفسح في المجال أمامي لكي أفعل.

«يجيب الحاضرون:

« ـــ لكن العذاب موجود.

« ـــ الموجود هو الإخفاقات. لا أحد ينجو منها. كما أن من الأفضل خسارة بضع معارك في نضالنا من أجل أحلامنا، من أن نهزم حتى من دون أن نعرف لما نناضل.

«سأل روّاد الحانة:

« ـــ أهذا كل شيء؟.

« ـــ أجل. بعد اكتشافي هذا، صحوت مصمّماً على أن أكون ما طالما أردت أن أكون حقاً. لبث «الآخر» هناك، في غرفتي محملقاً فيّ، لكني، منذ ذلك الحين، لم أدعه يدخل، وإن سعى أحياناً لترهيبي محذراً إيّايَ من مخاطر عدم التفكير في المستقبل. ومنذ أن طردت «الآخر» من حياتي، أطلقت الطاقة الإلهية معجزاتها».

أعتقد أنه اختلق هذه القصة. ربما كانت قصة جميلة لكنها غير واقعية». هذا ما راودني في سرّي، فيما كنا نواصل البحث عن مكان نمضي الليلة فيه. لم يكن في سان سافان أكثر من ثلاثين منزلاً، ولن يطول بنا الأمر حتى نرضخ مرغمين لما كنت قد اقترحته من قبل: أن نقصد مدينة أكبر من هذه.

وبرغم جدارة إيمانه، وخلو حياته من «الآخر» الذي غادرها بعيداً، فإنّ أهل سان سافان ما كانوا يعلمون أن حلمه هو أن يمضي الليلة هنا، ولن يُساعدوه على ذلك بالتأكيد. مع أنّه بدا لي، خلال سرده الحكاية، أنني أرى نفسي فيها: المخاوف ذاتها، انعدام الثقة التامة في الذات، والرغبة في الإغضاءِ عن كلِّ خارق لأنّ كل شيء قد ينتهي غداً، ويسبب لنا العذاب.

ترمي الآلهة النرد ولا تسألنا إذا كنا راغبين في اللعب. ولا تريد أن تعرف إذا كنت قد هجرتَ رجلاً أو بيتاً أو عملاً أو تاريخاً مهنيّاً أو حلماً. ولا يعني الآلهة كثيراً أن تكون لنا حياة رتّبنا فيها كلّ شيء بحسب موضعه، لتُحقّق كلّ رغبة بالعمل والمثابرة. ولا تولي الآلهة انتباهاً لخططنا أو رجاءاتنا. في الكون ترمي النرد، فإذا بك أنت المختار بمحض المصادفة. وبعد ذلك لا يكون الربح أو الخسارة إلا مسألة حظ.

ترمي الآلهة النرد، وتعتق الحبّ من أسره. تلك الطاقة التي من شأنها أن تخلق أو تدمّر، بحسب وجهة الريح التي كانت تعصف في لحظة خروجها من الأسر.

إلى الآن كان مهبّ الريح لا يزال في اتجاهه هو. لكنّ الرياح متقلّبة النزوات، كما هي الآله. وفي عمق أعماقي، كنتُ قد بدأتُ أشعر بلفحٍ من هبوبها.

كأن القدر شاء أن يُظهر لي أن قصّة «الآخر» حقيقة، وأن الكون بأسره متواطئ لما فيه خير الحالمين، حتى نهتدي إلى منزل يؤوينا في غرفةٍ بسريرين. سارعت إلى الاستحمام وغسل ملابسي الداخلية، وارتداء القميص التي ابتعتها، فشعرتُ بأنني امرأة خلقت للتوّ، ما منحني ثقة بالنفسِ جديدة.

قلتُ في سرّي ضاحكة: «إذا كان لا بدّ لي من القول، فإنّ «الآخر» لا يستحسن هذه القميص».

بعد العشاء إلى مائدة مالكي المنزل (فالمطاعم أيضاً تقفل أبوابها خلال الخريف والشتاء)، طلبَ تزويده بقنينة نبيذ، ووعد بأن يحضر واحدة بدلاً منها في اليوم التالي. ارتدينا سترتينا، وحملنا كأسين على سبيل الإعارة أيضاً، وغادرنا.

اقترحتُ قائلة: «هيّا بنا نجلس عند حافة البئر».

لبثنا هناك، وشربنا لكي لا نشعر بالبرد، ولكي نسترخي.

قلت، ممازحة: «يبدو أن «الآخر» قد عاد ليتجسّد فيك. إن مزاجك ليست بأفضل حال».

ضحك.

«لقد قلت إننا سنعثر على غرفة، وكان لنا ذلك. فالكون يعيننا دائماً على النضال من أجلِ أحلامنا، مهما بدت تافهة. لأنها أحلامنا نحن، ولا أحد سوانا يعلم كم كان شاقاً علينا أن نحلمها».

لم يكن الضباب، الذي كان يغلّفه مصباح الإنارة باللون الأصفر،

يتيح لنا أن نميّز الجهة المقابلة من الساحة.

شهقت ملء رئتي. إذ يستحيل التغاضي عن الأمر أكثر مما فعلنا.

قلت:

ـ كنّا قد اتفقنا أن نتحدّث عن الحب. ليس بالإمكان تفاديه أكثر مما فعلنا. أنت تعلم كيف عشتُ أيامنا الأخيرة هذه. لو كان الأمرُ بيدي لما تطرّقتُ قطّ إلى هذا الموضوع. ولكن بما أنه جرى التطرُّق إليه، فلا يسعني إلا أن أمعن التفكير فيه.

ـ الحبّ خطير.

ـ «أعلم. لقد سبق لي أن أحببت. الحبّ أشبه بمخدّر. في البداية ينتابك إحساس بالغبطة، بالاستسلام التام. وفي اليوم التالي، تطلب المزيد. لم يصبح إدماناً بَعدُ، لكنّك استحسنتَ إحساسك وتظنّ أنك قادر على التحكم فيه. تفكّر في الحبيب دقيقتين وتنساه لثلاث ساعات.

«ولكن شيئاً فشيئاً، تألف هذا الشخص وتصبح متعلّقاً به تماماً. وإذ ذاك تفكّر فيه ثلاث ساعات وتنساه دقيقتين. وإن لم يكن على مقربةٍ منك، ينتابك الإحساس نفسه الذي ينتاب المدمنين حين لا يتوفّر لهم ما أدمنوه. ومثل المدمنين الذين يسرقون ويتذللون للحصول على ما يحتاجون إليه، تجد نفسك مستعداً لأن تفعل أي شيء من أجل الحب».

قال مستهجناً:

ـ يا له من مَثَل فظيع!.

والحقّ أنّه كان مثلاً فظيعاً، لا يتلاءم والنبيذ والبئر وتلك المنازل القروسطية حول الساحة الصغيرة. لكنّه كان صحيحاً. فبعد أن بذل ما بذله في سبيل الحبّ، كان عليه أن يعي مخاطره أيضاً.

قلتُ ملخّصة الموقف:

ـ لهذا ينبغي ألّا نحبّ سوى شخص يمكن لنا أن نحتفظ به بقربنا.

لبث لبعض الوقت مُستغرقاً في تأمُّل الضباب. وكان واضحاً أنّه لن يسعى لأن نخوّض مجدداً في المياه الخطيرة، لنقاش حول الحب. وكنت أعلم مقدار قسوتي، لكني لم أملك خياراً آخر.

قلت في سرّي: «انتهى الأمر». فبقاؤنا معاً خلال الأيام الثلاثة المنصرمة، فضلاً عن رؤيتي كل يوم بالملابس نفسها، لا بدّ أن يكون قد حثّه على تغيير رأيه.

كان الأمر يمسُّ كبريائي كامرأة. غير أن قلبي خامره بعض الارتياح: «أهذا حقّاً ما أريد؟».

كنت بدأت أستشعر قوة العصفِ التي تحملها رياح الحب معها. وبدأتُ ألحظ الصدع في جدار السدّ.

لبثنا طويلاً، ونحن نحتسي النبيذ من دون أن نتطرّق إلى أمور جدّية. تحدّثنا عن مالكي المنزل والقديس الذي أنشأ تلك البلدة. وحكى لي بعض الأساطير حول الكنيسة في الجهة المقابلة من الساحة.

قال في لحظة ما: «أنتِ ساهية».

كنتُ ساهية، مشتّتة الذهن. لَكَمْ وددت أن أكون هنا بصحبة رجلٍ لم يقلق سكينة قلبي، رجل يسعني أن أحيا برفقته تلك اللحظة، ولا أخشى أن أفقده في الغد. فإذاك كان الوقت لينقضي متمهّلاً، ولأمكننا أن نلزم الصمت، لأن العمر أمامنا بأكمله لكي نتابع الكلام، ولما احتجت إلى الانشغال بأمور جدية وبقرارات من العسير اتخاذها، وبالكلام الذي تشوبه قسوة.

لبثنا صامتين، وهذه علامة. لاحظت أننا نلزم الصمت عندما ينهض لإحضار زجاجة ثانية من النبيذ.

لبثنا صامتين. سمعت وقع خطواته عائداً باتجاه البئر التي جلسنا عندها منذ أكثر من ساعة، منصرفين إلى احتساء النبيذ وتأمّل الضباب.

للمرّة الأولى لبثنا حقاً صامتين. ليس ذاك الصمت المُكرَهُ الذي ساد رحلتنا، في السيّارة، بين مدريد وبيلباو. وليس صمت قلبي الجزع في كنيسة سان مارتن دو أونه.

إنه صمت ينبئني بأننا ما عدنا مُرغمين على تبادل الذرائع والتفسيرات.

سكتت أصداء خطواته. إنه ينظر إليّ. ولا بدّ أن ما يراه جميل: امرأة جالسة على مثابِ بئر، في ليلةٍ ضبابية، تحت نور مصباح.

منازل القرون الوسطى، كنيسة القرن الحادي عشر، والصمت.

كنّا قد شربنا نصف زجاجة النبيذ الثانية، وإذ أجدني مسترسلة في الكلام:

«هذا الصباح كنت مقتنعة بأنني صرت مدمنة كحول. لا أكاد أتوقف عن الشرابِ طوال النهار. لقد شربت، خلال الأيام الثلاثة هذه، ما لم أشربه طوال العام الفائت».

لامس رأسي براحة يده من دون أن ينبس بكلمة. تحسست هذه اللمسة الخفيفة، ولم أفعل شيئاً كيما أصدّها. قلت له:

ــ احكِ لي قليلاً عن حياتك.

ــ لا أسرار عظيمة فيها. هناك دربي وأبذل ما بوسعي لكي أسلكه بكرامة.

ــ ما هو دربك؟

ــ درب الباحث عن الحبّ.

لهنيهات، انهمك بتقليب الزجاجة لاهياً. ثم أضاف قائلاً بما يشبه الخلاصة:

ــ والحبّ درب معقّد.

فقلت، ولست موقنة أنه يُلمِح بكلامه إليّ:

ــ لأنّه على هذا الدرب إمّا أن تفضي بنا الأمور إلى السماء وإمّا أن تفضي بنا إلى جهنم.

صمت. لعلّه ما زال غارقاً في بحر الصمت. غير أن النبيذ قد حلَّ عقدة لساني مجدداً. وشعرت بحاجة إلى الكلام:

ـ لقد قلت إن أمراً ما هنا، في هذه البلدة، جعلك تغيّر من وجهتك.

ـ أعتقد أن هذا ما حصل. لست موقناً بَعْدُ بذلك كلَّ اليقين، ولذلك أردت أن أصحبك إلى هنا.

ـ أهو اختبار؟

ـ لا. إنّه فعل إيمان. لكي تعينني على اتخاذ القرار الأفضل.

ـ مَنْ التي ستعينك؟

ـ السيّدة العذراء.

العذراء. كان ينبغي أن أتفهّم ذلك. إني معجبة بما أراه منه، وكيف أن كلّ هذه السنوات من الأسفار والاكتشافات والآفاق الجديدة، لم تحرّره من إيمان طفولته بالكاثوليكية. فعلى هذا الصعيد، في الأقلّ، أعترف بأننا، أنا وأصدقائي، قد تطوّرنا وما عدنا نحيا تحت وطأة الإثمِ والخطايا:

ـ إنه حقّاً لمثير للدهشة أن تحافظ على إيمانك، بعد كلّ الذي عشته.

ـ لم أحفظه. فقدته ثمّ تمكنت من استرداده.

ـ ولكن إيمانك بالعذراوات؟ بأمور مستحيلة، غير واقعية؟ لقد كانت لك تجارب جنسية عملية، أليس كذلك؟

ـ طبيعي. لقد أحببت عدداً لا بأس به من النساء.

شعرت بشيءٍ من الغيرة، وفاجاني ما أشعر به. غير أنَّ الصراع الداخلي قد استكان قليلاً، ولستُ راغبةً في تأجيجه.

«ولكن، لِمَ هي «العذراء»؟ لِمَ لا تُقدّم لنا «السيّدة» كامرأةٍ عادية، شبيهة بكلّ الأخريات؟».

كرع القليل المتبقّي في الزجاجة. وسألني إن كنتُ راغبة أن يحضر زجاجة أخرى. فقلت لا.

وتابعت:

ـــ أريد منك إجابةً، قطعاً. فما أن نتطرق إلى بعض الأمور حتى تسعى لتحوير الحديث.

ـــ «كانت امرأة عادية. وأنجبت عدداً آخر من الأولاد. يرد في «العهد القديم» أنه كان ليسوع شقيقان. والبكارة، في الحَمْلِ بيسوع، تفسّر بأنَّ مريم هي التي تَسِمُ بداية عصرٍ جديد للنعمى. معها تبدأ حقبة أخرى. إنها الخطيبة الكونية، «الأرض»، التي تنفرج للسماء مستسلمة لفعل إخصابها.

«في تلك اللحظة، وبفضل شجاعتها، شجاعة قبول قَدَرها، تتيح «للإله» أن يحلّ على «الأرض». وتستحيل أمّاً عظمى».

لم أتمكّن من تتبّع عظته. فتنبه إلى الأمر.

«إنها الوجه الأنثوي من الإله. ولها ألوهيتها الخاصّة».

بدا واضحاً من نبرة كلامه أنَّه متوتّر قليلاً، كلماته كأنها تُلفظ بمشقّة، كأنَّه يقترف، فيما يقول، خطيئة. سألت:

«أهي إلهة؟».

انتظرت قليلاً ريثما يُفسّر على نحو أفضل. لكنّه لم يتابع كلامه. لدقائق مضت كنت أفكُر، بشيء من السخرية، في كاثوليكيته. والآن بدا لي كلامه تجديفاً.

وعدت مجدداً إلى إثارة الموضوع:

«من هي العذراء؟ وما هي الإلهة؟».

فقال، مبدياً ضيقه المتزايد: «هذا أمر يصعب شرحه. أحمل معي نصّاً من بضع صفحات. بإمكانك أن تقرأيها إن شئتِ».

بحث عن زجاجة النبيذ، لكنّها كانت فارغة. لم نتذكّر جيّداً ما الذي أتى بنا إلى هذه البئر. أمر ما على قدر من الأهمية كان هنا، كأنّ كلامه في معرضِ اجتراح معجزة. قلت بإلحاح:

ـــ تابع.

ـــ رمزها المياه، الضباب الذي يكتنفها. الإلهة تستخدم الماء لكي تظهر.

بدت سحابة الضباب كأنها تنبعث فيها الحياة، تكتسي بطابع القداسة، وإن كنت لا أزال عاجزة عن إدراك معنى كلامه.

«لا أريد أن ألقي عليك درساً في التاريخ. وإذا شئتِ الاطّلاع على المزيد، بهذا الشأن، فيمكنك قراءة النص الذي أحضرته معي. ولكن فلتعلمي أن هذه المرأة ــ الإلهة، العذراء مريم، شيشينه اليهودية، الأم العظمى، إيزيس، صوفيا، العبدة والسيّدة ــ حاضرة في كل ديانات العالم. لقد أهملت، ومُنعت، ونُكُرت، غير أن عبادتها استمرّت عبر آلاف وآلاف السنين قبل أن تصل إلينا.

«إنّ أحد وجوه الله هو وجه امرأة».

حدّقت بوجهه. كانت عيناه لامعتين محملقتين بالضباب الذي يكتنف المكان. وما عاد إلحاحي عليه هو دافعه إلى متابعة كلامه.

«إنها حاضرة في السفر الأوّل من «العهد القديم» عندما كان روحُ الله يُرفُّ على وجه المياه. وجعلها تحت الكواكب وفوقها. إنها القِرانُ الصوفي بين «الأرض» و«السماء».

«إنها حاضرة في السفر الأخير من «العهد القديم»:

... والروحُ والعروس يقولان: تعالَ.

ومن يسمع فليقل: تعالَ.

ومن يعطش فليأت.

ومن يُرد فليأخذ ماءَ حياةٍ مجّاناً.

ــ لمَ الماء هو رمز الوجه الأنثوي للإله؟

ــ لا أدري. لكن، بالإجمال، الماء هو الوسيلة التي تختارها لكي تظهر. ربّما لأن الماء هو مصدر حياة. نحن نُولَد في غمرة الماء، ونبقى في كنفه تسعة أشهر. الماء هو رمز سلطانِ المرأة، السلطان الذي لا يأمل رجل، مهما كان مستنيراً، ومهما كان كاملاً، في أن يبلغه.

صمت هنيهة ثم تابع قائلاً:

«في كلّ الأديان والمأثورات، دائماً تتجلّى بطريقة أو بأخرى. وبما أني كاثوليكي أتمكّن من رؤيتها، عندما أجدني أمام العذراء مريم».

أمسك يدي. وفي أقلّ من خمس دقائق، أصبحنا خارج سان سافان. مررنا بمحاذاة عمود نُصِبَ على قمّته، على نحوٍ غريب، صليب وتمثالٌ للعذراء، حيث ينبغي أن يكون تمثال يسوع المسيح. ما زلت أذكر ما قاله، وعُجبتُ لهذه المصادفة.

باتَ الضباب والعتمة يغمراننا الآن تماماً. أتخيَّلني في الماءِ، في جوفِ الرحم الذي حملني حيث لا زمن ولا أفكار. تبدو كلماته ذات معنًى، ذات معنًى مرعب. أذكر تلك المرأة خلال المحاضرة. وأذكر الفتاة التي اصطحبتني حتى الساحة. هي أيضاً قالت إنَّ الماء هو رمز الإلهة.

تابع قائلاً:

«على بعد عشرين كيلومتراً من هنا، توجد مغارة. في ١١ فبراير (شباط) عام ١٨٥٨، كانت طفلة صغيرة تجمع حطباً في الجوار، برفقة بنتين أخريين، طفلة هزيلة، مصابة بالربو، فقيرة حتى البؤس. وكان الوقت شتاءً. في ذلك اليوم خشيت أن تجتاز ساقية صغيرة: فقد تبتلّ ملابسها فتتوعَّك، وأهلها في أمسّ الحاجة إلى حفنة الدراهم التي تجنيها من حراسة القطيع.

«عندئذٍ ظهرت امرأة مُسربلة بالأبيض، وعند قدميها وردتان مذهَّبتان. وخاطبت الطفلة كما تُخاطَب أميرة، فقالت «أرجوك عودي إلى هذا المكان مراراً، ذكرت عددها، واختفت. فسارعت الفتاتان الأخريان اللتان شاهدتا الطفلة في حالة وجد، إلى إشاعة الخبر بين الناس.

«بدءاً بتلك اللحظة، بدأت رحلة عذاب طويلة عاشتها الطفلة الصغيرة. اعتقلت، وطلب منها أن تنكر كلّ شيء. بَذِلَ لها المالُ إغواءً كيما تسألَ الرؤية بعض الخدمات الخاصّة. خلال الأيام الأولى،

تعرّضت أسرتها لأقذع الشتائم، وأشيع أنها تزعم ما زعمته للفتِ الأنظار.

،لم تكن الطفلة، وكانت تدعى برناديت، لتفقه شيئاً من طبيعةِ ما تراه. وكانت، حين تذكر السيّدة، تسمّيها بلهجتها المحلية ،ذاك الشيء،. حتّى أعيت أهلها الحيلة فلجأوا إلى كاهن البلدة طلباً للعون. فاقترح عليهم أن تعمد خلال الرؤية المقبلة أن تسأل السيّدة عن اسمها.

،نفّذت برناديت ما طلبه منها الكاهن، سوى أنها لم تحظ إلّا بابتسامة إجابة. تكرّرت الرؤية ثماني عشرة مرّة بالإجمال، وفي معظم الأحيان، من دون النطق بكلمة واحدة.

،ولكن في إحداها، طلبت من الطفلة أن تقبّل الأرض. ونفّذت برناديت ما طلبته منها الرؤية من دون أن تفقه شيئاً. وفي اليوم نفسه، طلبت من الطفلة أن تحفر حفرةً في أرضية المغارة. فانصاعت برناديت لطلبها، وإذا بمياه شحيحة موحلة تنبجس منه، لأنّ المكان كان يستخدم كزريبة للخنازير.

قالت السيّدة: اشربي من هذا الماء.

،كانت المياه عكرة، حتى إن برناديت غرفت منها بيدها ثم رمتها ثلاث مرّات، ولم تملك الشجاعة الكافية لأن تمسّها بشفتيها. لكنّها، في آخر الأمر، انصاعت بكثير من التقزّز. في الموضع الذي حفرته صار الآن ينبوعاً. إذا غسل الأعور عينيه بقطرات منها استعاد بصره، وإذا غطّست فيها المرأةُ وليدَها المحتضر، في يومٍ تبلغ فيه الحرارة في الخارج درجة الصفر، شُفيَ الوليد وكتبت له الحياة.

،شيئاً فشيئاً، شاع الخبر. وراح آلاف من الناس يتوافدون إلى المكان. وبرناديت تلحّ بالسؤال على السيّدة لكي تعرف اسمها، لكنّ السيّدة تكتفي بالابتسامة جواباً. إلى أن جاء يوم استدارت فيه الرؤية باتجاه الطفلة، وقالت:

،إني ،الحبل بلا دنس،!.

«لشدّة سرورها، هرعت الطفلة إلى الكاهن لتخبره بما سمعت.

«فقال الكاهن: 'غير معقول'. لا أحد، يا ابنتي، يستطيع أن يكون الشجرة والثمرة في وقتٍ معاً. عودي إلى هناك وارشقيها بماءٍ مبارك.

«ففي علم الكاهن أن الله وحده يقدر أن يكون موجوداً منذ البدء. واللهُ، بحسب كلّ العلامات، رجل».

صمت لوقت غير قصير.

«راحت برناديت ترشق الرؤية بماء مبارك، والرؤية تبتسم برقّة، لا أكثر.

«في ١٦ (يوليو) تموز، حصلت الرؤية الأخيرة. وبعيد ذلك دخلت برناديت الدير غير مدركةٍ لحقيقة أنها غيّرت قدر هذه البلدة الصغيرة المجاورة للمغارة. وما زال الينبوع منبجساً، والمعجزاتُ متتالية.

«انتشرت الحكاية في أرجاء فرنسا أوّلاً، ثمّ في العالم بأسره. وراحت البلدة تنمو وتتبدّل أحوالها. ويفد التجّار للإقامة فيها من كل ناحية وصوب. وتُشيَّد الفنادق. ماتت برناديت ودفنت بعيداً جداً، من دون أن تعرف ماذا يجري.

«في معرض السعي لإحراج الكنيسة (ذاك أن الفاتيكان كان، في تلك الأثناء، يعترف بالرؤى)، عمد بعض الناس إلى تلفيق معجزات كاذبة، سرعان ما اتّضح زيفها. وجاء ردّ فعل الكنيسة عنيفاً: فقرّرت، أنها بدءاً من تاريخ معين، لن تقبل بالظواهر، على أنها معجزات، إلّا بعد إخضاعها، بنجاح، لسلسلةٍ من الاختبارات التي تجريها لجان طبية وعلمية معتمدة.

«لكن الينبوع ما زال يتدفّق، وما زالت العاهات تبرأ».

خُيّل إليّ بأني سمعت جلبة بجوارنا. فانتابني الخوف، أما هو، فلم يحرّك ساكناً. أصبح للضباب الآن حياةٌ وتاريخٌ. فكّرت في كلِّ ما يقوله. من أين له أن يعرف كلّ هذا؟

فكّرت في الوجهِ الأنثوي للإله. إن الرجل الجالس بقربي له روح زاخرة بالتناقضات. منذ زمن غير بعيد، كتب لي ليخبرني أنه يريد أن ينتسب إلى مدرسة إكليريكيّة كاثوليكية؛ لكنه يؤمن بأن الله له وجه أنثوي.

لبث صامتاً. أمّا أنا فاستسلمت إلى شعوري بأني داخل رحم «الأرض الأمّ» خارج الزمان والمكان. وخيّل إليّ أن أحداث قصة برناديت تجري أمام ناظريّ في كنف هذا الضباب الذي يغمرنا.

تابع سرده:

«كانت برناديت تجهل أمرين على قدر كبير جداً من الأهمية. الأمر الأوّل هو أن هذه الجبال، وقبل مجيء الديانة المسيحية، كان يقطنها السلتيون، وأن التعبُّد «للإلهة» لطالما احتلّ المرتبة الأولى في ثقافة هذه الشعوب. هناك أجيال وأجيال كانت تدرك معنى الوجه الأنثوي للإله، وتشارك في حبّها وجلالها».

ــ والأمر الثاني؟

ــ الأمر الثاني هو أن السلطات العليا في الفاتيكان، وقُبَيل أن تتجلّى الرؤى لبرناديت، قد عقدت اجتماعات سرّية. ولم يبلُغ أحد تقريباً بما كان يجري خلال هذه الاجتماعات. والمؤكّد أن كاهن رعية بلدة «لورد» ما كان يعلم شيئاً عنها. فقد كان كبار أعيان الكنيسة يتباحثون حول إقرار عقيدة «الحبل بلا دنس». وكان أن تمّ الإعلان عن هذه العقيدة بالقرار البابوي "Ineffabilis Deus". ولكن من دون أن يوضح معناها لعامّة الناس على نحو دقيق.

ــ وما شأنك أنت في كلّ هذا؟

فقال، من دون أن يدرك أنه بقوله هذا يكشف لي مصدر علمه:

ـ إني أحد مريديها. ومعها تعلّمت.

ـ هل تراها؟

ـ أجل.

عدنا أدراجنا إلى الساحة. واجتزنا الأمتار القليلة التي تفصلنا عن الكنيسة. رأيت البئر ونور الصباح وقنينة النبيذ والكاسين على المثاب. قلت في سرّي: «لا بدَّ أن عاشقين كانا هنا، صامتين فيما قلباهما يتحدثان. وبعد أن فرغ قلباهما من الكلامِ كلّه، شرعا في تقاسم الأسرار الكبرى».

مرة أخرى لم نتحدث عن الحبّ. شعرت بأني ماثلة أمام أمر خطير، ويجب أن أنتهز الفرصة لأفهم ما أمكن فهمه. لهنيهات استذكرت دروسي، سرقسطة، وحبّ حياتي الذي أزعم أني وجدته. ولكن كلّ هذا يبدو لي بعيداً الآن، مُحتجباً وراء الضباب نفسه الذي يكتنف سان سافان.

ــ لمَ حكيت لي حكاية برناديت؟

أجابني وهو محدّق إليّ:

ــ أجهل السبب الفعلي. ربّما لأننا على مقربةٍ من «لورد». وربّما لأن بعد غد يصادف عيد «الحبل بلا دنس». أو ربّما لأني أردت أن أظهر لك أن هذا العالم، الذي هو عالمي، ليس معزولاً ولا مجنوناً بالمقدار الذي يبدو عليه. هناك أناس آخرون ينتمون إليه، ويشاركونني اعتقادي.

ــ لم يخطر ببالي يوماً أن عالمك مجنون. ربّما كان عالمي أنا هو المجنون: ذلك أني أبذذ أغلى لحظات حياتي على الكراسات، ومتابعة دروسي التي لن تتيح لي أن أغادر مكاناً أعرفه جيّداً.

بدا لي أن جوابي أشعره بالارتياح: أشعره بأني أتفهَّم موقفه.

كنتُ آمل أن يتابع كلامه عن «الإلهة»، لكنّه التفت نحوي وقال:

«لنذهب إلى النوم. لقد أفرطنا في الشراب».

الثلاثاء ٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٣

غفا على الفور. أمّا أنا، فبقيت يقظة لوقت طويل، وفي رأسي تتردّد صور الضباب في الخارج، وساحة البلدة، والنبيذ، والمحادثة التي جرت بيننا. قرأت المخطوطة التي أعارني إياها، وشعرت بأني سعيدة، كان الله، إذا كان موجوداً حقاً، أباً وأمّاً.

بعد ذلك، أطفأت النور. وتابعتُ التفكير في الصمتِ الذي ساد بيننا عند حافة البئر. ففي تلك اللحظات التي توقّفنا خلالها عن الكلام، أدركت كم أني قريبة منه.

لم نقل شيئاً، لا أنا ولا هو. فمن العبث الكلام على الحب، لأن الحبّ له صوته الخاص، ويتكلّم من تلقائه. في تلك الأمسية، على مثابِ البئر، أتاح الصمت لقلبينا أن يتقاربا، وأن يتعارفا على نحوٍ أفضل. وإذ ذاك سمع قلبي ما نطق به قلبه. وأحسّ بالسعادة.

قبل أن أغمض عينيّ، قرّرت أن أقومَ بما كان يسمّيه «تمرين الآخر».

«إني هنا في هذه الغرفة. بعيدة من كلّ ما ألفته، أتحدّث بأمور لم تُثر اهتمامي من قبل، أقضي ليلتي في بلدة لم تطأها قدماي من قبل. بإمكاني التظاهر، لبضع دقائق، بأنني مختلفة».

ورحت أتخيّل كيف يروق لي أن أحيا تلك اللحظة. كنت أودّ أن أكون مبتهجة، زاخرة بالفضول، سعيدة، متمتّعة بعيش كلّ ثانية على آخرها، شاربةً ماء الحياة بنهم؛ مطمئنةً من جديد إلى أحلامي؛ قادرة على القتالِ من أجل تحقيق رغباتي.

مُغرمة برجل يحبّني.

أجل، تلك هي المرأة التي كنت أودّ أن أكونها، والتي ظهرت فجاة، وأصبحتُ أنا.

شعرت بأن روحي عائمةً في نور إله ــ أو إلهة ــ ما عدتُ مؤمنةً به. وشعرت أن «الأخرى»، في تلك اللحظة، قد غادرت جسدي وانتحت ركناً من الغرفة الصغيرة.

وكنت أنظر إلى المرأة التي كنتها إلى الحين: ضعيفة لكنّها تحاول أن توحي بأنها قوية. تخاف من كلّ شيء، لكنّها تقنع نفسها بأن هذا ليس خوفاً، بل هو حكمة من خَبِرَ الواقع، تشيّد الجدران عالية أمام نوافذها التي من خلالها ينسربُ حبور الشمس، لكي لا يبهت لمعان أثاثها القديم.

رأيت «الأخرى» منتحية ركن الغرفة، هشّةً، سئمةً، متحرّزة من الوهم. متحكّمة مستبدّة بما كان ينبغي أن يبقى حرّاً على الدوام: المشاعر، ساعية إلى إدانة الحبّ المُقبل انطلاقاً من عذابات الماضي.

الحبّ دائماً جديد. ولا فرق إذا أحببنا مرّة واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً في حياتنا. فإننا دائماً نجد أنفسنا أمام موقف مجهول، قد يفضي بنا الحبّ إلى الجحيم أو إلى الفردوس، لكنّه دائماً يفضي بنا إلى مكان ما. يجب أن نتقبّله لأنه هو الذي يغذّي وجودنا. وإن تهرّبنا مُتنا جوعاً، وأمام أعيننا ترفل الأغصان بثمار شجرة الحياة، لكننا لا نجرؤ على القطاف. يجب أن نسعى وراء الحبّ حيثما كان الحبّ، حتى لو كلّفنا ذلك ساعاتٍ وأياماً وأسابيع من الإحباط والحزن. لأنّه، منذ اللحظة التي ننطلق فيها سعياً وراء الحبّ، ينطلقُ هو أيضاً لملاقاتنا.

ويخلّصنا.

عندما ابتعدت «الأخرى» راح قلبي يحدّثني من جديد. وأخبرني

أن الصدع في جدار السدّ كان يُسرّب الماء، وأن الرياح كانت تهبّ في كلّ اتجاه، وأنّه مغتبطٌ لأني أصغي إليه مجدّداً.

كان قلبي يقول لي إني عاشقة. وغفوتُ هانئة، والبسمة على شفتي.

عندما استيقظت، كانت النافذة مفتوحة، وكان مستغرقاً في تأمّل الجبال في البعيد. لبثت بضع دقائق صامتةً، مستعدّة لأن أغمض عيني إذا التفت نحوي.

وكما لو أنّه فطن لما يدور في رأسي، فاستدار فجأةً ونظر إلي:

ــ صباح الخير.

ــ صباح الخير. أغلق درفة النافذة، فالبرد شديد.

كانت «الأخرى» قد عادت دونما استئذان. وما زالت تحاول أن تغيّر وجهة الريح، أن تكتشف الثغرات، وتقول لا، هذا مستحيل. لكنها كانت تعلم أنها تأخّرت كثيراً.

ــ يجب أن أغيّر ملابسي.

ــ سأنتظرك في الأسفل.

عندئذ نهضتُ وطردت «الأخرى» من أفكاري، وعاودت فتح درفة الشبّاك لكي تدخل أشعة الشمس. الشمس التي كانت تسطع فوق كل شيء: الجبال المكسوة بالثلوج، الأرض المكسوة بأوراق الشجر اليابسة، النهر الذي ما كنتُ أراه لكني أسمع هديره.

تسرّبت الشمس إلى نهديّ، ونوّرت جسدي العاري. وما كنتُ لأشعر بالبرد لأنّ ناراً كانت تستعر فيّ، دفء شرارة تستحيل شعلة، والشعلة تستحيل محرقة، والمحرقة حريق، من المستحيل إخماده. كنت أعلم ذلك.

وكنتُ أريده.

كنت أعلم أني، ابتداءً بتلك اللحظة، سوف أختبر السماء والجحيم، الغبطة والألم، الحلم وفقدان الرجاء. ولن أعود قادرة على احتواء الرياح التي تهبُّ من أرجاء روحي الخفية. كنت أعلم أنه، بدءاً بذلك الصباح، سيغدو الحبّ هو دليلي، مع أنه دليل لطالما كان موجوداً منذ الطفولة، مذ رأيته للمرّة الأولى. ذلك أني لم أنسه يوماً، وإنْ كنت قد حكمت على نفسي بأنها غير جديرة بأن تقاتل من أجله. كان حبّاً صعباً مسيَّجاً بحدود لم أرِد أن أتخطّاها.

عاودتني ذكرى تلك الساحة في صوريا، ذكرى تلك اللحظة التي طلبت منه فيها أن يبحث عن المدالية التي فقدتها. كنت أعلم، بلى، كنت أعلم ما يودّ أن يقوله، وما كنت أريد سماعه، لأنّه كان من طينة هؤلاء الفتيان، الذين يرحلون ذات يوم، سعياً وراء المغامرات أو المال أو الأحلام. سوى أني كنتُ في حاجة إلى حبٍّ مستحيل، وكان قلبي وجسدي ما زالا بكرين، وكان أمير ساحر سوف يأتي لملاقاتي.

في ذلك الوقت، لم أكن أعرف الكثير عن الحب. وعندما رأيته أثناء المحاضرة، وقبلت دعوته، ظننت أن المرأة الناضجة كانت قادرة على التحكّم بقلب الفتاة التي كم وكم صارعت لتلتقي الأمير الساحر. في ذلك الحين، بالذات، تحدّث عن الطفل الذي يبقى حيّاً في كلٍّ منا، فسَمعتُ، مجدّداً، صوت الفتاة الصغيرة التي كنتها، صوت الأميرة التي كانت تخاف أن تحبّ وتفقد.

طوال أربعة أيام، كنت أحاول تجاهل صوت قلبي، لكنّه كان يزداد قوّة كلما حاولت، حتّى كادت «الأخرى» أن تيأس مني. ففي ركنٍ خفيٍّ من روحي، كنت لا أزال موجودة، ولا أزال مؤمنة بالأحلام. وقبل أن أدع «الأخرى» تتفوّه بكلمة، كنت قد قبلتُ المقعد المتاح في السيّارة، وقبلتُ القيام بالرحلة، وصمّمتُ على جبهِ المخاطر.

ولهذا السبب ذاته، تلك الحفنة المتبقية من أناي، لاقاني الحبّ مجدداً، بعد طول بحثه عني في جهات العالم الأربع. لاقاني الحبّ مجدداً، وإن كانت «الأخرى» قد شيدت دونه سدّاً، من الأحكام المسبقة واليقينيات وكتب الدراسة، في شارع هادئ من شوارع سرقسطة.

فتحت النافذة، وقلبي. دلفت أشعة الشمس إلى داخلِ الغرفة، وغمر الحبُّ قلبي بنوره.

سرنا لساعات، على الريق. مشينا على الطريق المكسوّة بالثلوج؛ ثمّ تناولنا طعام الفطور في بلدةٍ لن أتذكّر اسمها مهما حاولت. لكنْ، في وسط ساحتها نافورة ماء، وعلى هذه النافورة منحوتة لثعبان ويمامة متضامّين، كأنّهما جسمٌ واحد.

ابتسم لما بدا في الصورة:

ـــ إنها علامة. المذكّر والمؤنّث مجتمعانِ في صورة واحدة.

ـــ لم أفكّر من قبل في ما قلته لي بالأمس. مع أن الأمر منطقي.

قالَ، مقتبساً عبارة من سفر التكوين:

ـــ «ذكراً وأنثى خلقهم»، لأن صورته ومثاله كانا رجل وامرأة.

رأيت أن لعينيه بريقاً مختلفاً. كان مبتهجاً، ويضحك لما لا يُضحك. كان يبادر إلى محادثة الأشخاص القلائل الذين صادفناهم في طريقنا: من مزارعين يرتدون ملابس رمادية في طريقهم إلى أعمالهم، وجبليين في ثياب ملوّنة يستعدّون لتسلّق قمة جبل.

كنت ألزم الصمت، لأن لغتي الفرنسية بائسة، لكنّ روحي كانت تبتهج لرؤيته على هذه الحال. وكان حبوره عظيماً، بحيث أن الجميع كانوا يبادلونه الابتسام عندما يتحدّثون إليه. ربّما أسرَّ إليه قلبه بأمرٍ ما؛ فبات يدرك الآن أنني أحبه، وإنْ كان تصرّفي معه لم يزل تصرّف صديقة الطفولة.

قلت:

ـــ تبدو أكثر ابتهاجاً.

ـــ ذلك أني لطالما حلمت بأن أكون هنا بصحبتك، نسير وسط هذه الجبال، ونجني ثمار الشمس الذهبية.

«ثمار الشمس الذهبية»: بيت شعر كتب منذ زمن بعيد، وإذا به يرتده في اللحظة المناسبة.

أردفت قائلة:

ـــ هناك سبب آخر لحبورك.

ـــ وما هو؟

ـــ أنت تعلم أني مسرورة. وبفضلك أنت أجلتني اليوم هنا، متسلّقة الجبال الحقّة بعيداً من جبال الدفاتر والكتب. أنت تسعدني. والسعادة أمرٌ يتكاثر بالقسمة.

ـــ هل اختبرت تمرين «الآخر»؟

ـــ أجل. وما أدراك؟

ـــ لأنّك تغيّرت أنتِ أيضاً. ولأننا دائماً نتعلّم هذا التمرين في الوقت المناسب.

تبعتني «الأخرى» طوال ذاك الصباح. كانت تحاول الاقتراب. غير أنَّ صوتها كان يعتوره الوهن، دقيقةً إثر دقيقة، وصورتها تميلُ إلى التحلّل والتلاشي. فكنتُ أرى نهاية أفلام مصّاصي الدماء، عندما يستحيل الوحش نثاراً من الغبار.

مررنا بمحاذاة عمود آخر مكلّل بتمثال العذراء والصليب.

سألني:

ـــ بِمَ تفكرين؟

ـــ بمصّاصي الدماء. بالكائنات الليلية، المعزولة، الباحثة عبثاً عن صحبة. لكنّها عاجزة عن الحبّ. ولهذا السبب تقول الأسطورة إن خازوقاً يغرز في القلب كفيلٌ بقتل مصّاص الدماء، إذ يصحو القلب، ويُعتق طاقة الحب ويدمّر الشرّ.

ـــ لم أفكر في الأمر من قبل. لكنّه منطقي.

لقد أفلحت في غرز هذا الخازوق، والقلب المنعتق من اللعنات، يصبح سيّداً على كل شيء. وما عاد «للأخرى» موضعاً تلوذ به.

ألف مرَّة شعرت برغبةٍ في أن أمسك يده. وألف مرّة أحجمت. كنت مشوَّشة بعض الشيء: أريد أن أقول له إني أحبّه، ولا أدري كيف أقول ذلك.

لقد ثرثرنا، تحدّثنا عن الجبال والأنهار. وضللنا طريقنا وسط الغابة لأكثر من ساعة، ثمّ اهتدينا إلى السبيل. أكلنا شطائر وشربنا ذوابّ الثلج. وعندما مالت الشمس إلى المغيب، قرّرنا أن نعود أدراجنا إلى سان سافان.

كان خفقُ خطواتنا يتردَّد على جدران الحجر.

بحركةٍ تلقائية، مدَدتُ يدي إلى جرن الماء المبارك ورسمتُ شارة الصليب. تذكَّرت تفسيره: الماء هو رمز الإلهة.

قال: «لنذهب إلى هناك».

سرنا قدماً داخل الكنيسة المقفرة، المعتمة، حيث مدفن أحد القديسين تحت المذبح: القديس سافان. وهو ناسك عاش في مطلع الألفية الثانية. لقد هُدمت هذه الجدران، وأعيد بناؤها مراراً وتكراراً.

تكون بعض الأمكنة على هذا النحو. قد تدمّرها الحروب، وحملات التنكيل واللامبالاة، لكنها تبقى مقدّسة. ويحدث أن يمرَّ بها أحدٌ ما ويشعر بأنّ شيئاً ما ينقصها فيُعيد بناءَها.

لاحظت تمثالاً للمسيحِ مصلوباً ولَّد لديَّ شعوراً غريباً. إذ خُيِّل إليّ أن أنظاره تتبعني حيثما كنت.

«لنتوقف هنا».

كنَّا أمام مذبح «السيدة العذراء».

«انظري إلى التمثال».

رأيت مريم وابنها في حضنها، وسبّابة الطفل يسوع تشير نحو الأعلى.

أخبرته بما كنتُ أرى. فالحّ قائلاً:

«تمعَّني جيّداً».

تفحصتُ كل تفاصيل التمثال الخشب: الطلاء المذهَّب، القاعدة، الدقّة في نحت ثنيات الرداء. ولكنني لم أدرك الأمر، إلا عندما أمعنت النظر في أصبع الطفل يسوع.

فالحقيقة أنّه، على الرغم من أنّ مريم هي التي تحضنه بين ذراعيها، فإنّ يسوع هو الذي يحملها. إذ بدت ذراع الطفل، المشيرة إلى السماء، هي التي ترفع العذراء إلى الجَلَدِ الأزرق، عائدةً إلى دارة «عريسها».

قال معلّقاً: إن الفنان، الذي أنجز هذه المنحوتة منذ أكثر من ستمئة سنة، كان مدركاً ما يفعل».

ترنّد وقعُ خطوات على الأرضية الخشب. امرأة دخلت وأضاءت شمعة أمام المذبح. لبثنا صامتين لبعض الوقت احتراماً لصلاتها.

كنتُ أقول في سرّي، فيما كان مُستغرقاً في تأمُّلِ العذراء: «الحبّ لا يأتي تدريجاً. أمسِ، كان العالم ذا معنًى من دون أن يكون حاضراً فيه. أمّا الآن، فأحتاج إلى أن يكون بقربي لكي أميّز الإشراقة الحقّة للأشياء».

بعد رحيل المرأة، تابع قائلاً:

«كان الفنان يعرف «الأم العظمى»، الإلهة، الوجه الرحيم للّه. لقد طرحتِ عليّ سؤالاً لم أتمكّن، إلى الآن، أن أجيب عنه إجابة صحيحة. لقد سألتني: أين تعلّمت كلّ هذا؟».

بلى، كنتُ طرحت عليه هذا السؤال، وسبق أن أجاب عنه. غير أني سكتُّ.

«الجواب إذاً هو أنني تعلّمت عبر هذا الفنان. لقد تقبّلت حبَّ ملكوت السموات. وارتضيت الهداية. لا بدّ أنك تذكرين تلك الرسالة التي أخبرتك فيها أنني سأدخل الدير. لم أخبرك قطّ ما الذي حصل فيما بعد، لكنّ الحقيقة أنني دخلت الدير.

استعدت على الفور تلك الحادثة، قبل المحاضرة. وراح قلبي يخفق بسرعةٍ أكبر. وحاولت أن أثبّث نظراتي على العذراء. كانت تتبسّم.

«هذا مستحيل. لو أنه ترهبن فعلاً، فلا بدّ أنه الآن قد ترك الرهبنة. أرجوك، قل لي إنك تركت الرهبنة!».

تابع قائلاً، غير آبهٍ بما كان يدور في خلدي: «لقد عشتُ صبايَ بكلّ ما فيه. عرفت أناساً آخرين، ومناظر أخرى. وبحثت عن الله في جهات الأرض الأربع. أحببت نساء أخريات، وعملت لدى عدد لا يُحصى من البشر في مهن مختلفة».

اختلاجٌ آخر في القلب. قلت في سرّي، ونظراتي ثابتة على بسمة السيّدة العذراء: «يجب أن أكون حذرة من عودة الأخرى».

تابع قائلاً: «كان سرّ الحياة يفتنني، وكنت أريد أن أدركه على نحوٍ أفضل. وارتحلت سعياً وراء الأجوبة لدى من ظننتُ أنه يملكها. قصدتُ الهند ومصر. عرفت أعلامَ السحر والتأمل. وعشتُ بجوار الخيميائيين والكهنة. واكتشفتُ ما كنت أحتاج إلى اكتشافه: أن الحقيقة دائماً موجودة حيثُ يوجد الإيمان».

جلتُ بأنظاري مجدّداً في أرجاء الكنيسة من حولي، تلك الحجارة البالية، المتهدّمة مراراً والمرمّمة مراراً. ما الذي يحثّ الإنسان على إصراره هذا، على الكدّ بمثل تلك الاستماتة لكي يرمّم هذا المعبد، في بقعة بعيدة من أي شيء، نائية بين سفوح هذه الجبال الشاهقة؟

إنه الإيمان.

«كان البوذيّون على حق، والهندوس على حق، وهنود أميركا على حق، والمسلمون على حق، واليهود على حق. فإذا اتّبع الإنسان، بقلب صادق، درب الإيمان، أمكنه أن يتّحد بالله وأن يجترح المعجزات. غير أن العلم وحده بذلك لم يكن كافياً: إذ كان ينبغي أن أختار. فاخترت الكنيسة الكاثوليكية لأنني ترعرعت

في كنفها، وطفولتي ممتلئة بأسرارها. ولو كنت قد ولدت يهودياً، لاخترت اليهودية. الله واحد وإن سمّي بألف اسم؛ ولكن ينبغي أن نختار اسماً له لكي نخاطبه».

مرّة أخرى، تناهى إلى سمعنا وقع خطوات في الكنيسة.

اقترب رجل ولبث محدّقاً بنا. ثمّ اتجه نحو المذبح ورفع عنه الشمعدانات. فلا بدّ أنّه المكلّف تدبير شؤون الكنيسة.

قال عندما ابتعد الرجل:

ـــ لديّ موعد هذا المساء.

ـــ أرجوك تابع كلامك، ولا تغيّر الموضوع.

ـــ انتسبت إلى مدرسة إكليريكية في هذه النواحي. ودرست ما أمكنني خلال أربع سنوات. وفي أثناء ذلك، أقمت صلاتٍ بالمستنيرين، واللدنيين وسائر التيّارات المختلفة التي كانت تحاول أن تفتح أبواباً مغلقة منذ أمدٍ بعيد. واكتشفت أن الله ليس «البُعبع» الذي طالما أفزعني في طفولتي؛ وأنّ هناك اتّجاهاً للعودةِ إلى البراءة الأصلية للمسيحية.

لاحظت، قائلةً بنبرة مشوبة بالتهكّم:

ـــ وهكذا، أدركنا، وبعد مرور ألفي عام، أنه ينبغي أن ندعَ ليسوع أن يكون جزءاً من الكنيسة.

ـــ تقولين هذا على سبيل المزاح، ولكن هذا ما حدث بالضبط. بدأت تعليمي على يدِ أحد الآباء الرؤساء في الدير. كان يعلّمني أنه ينبغي تقبّل شعلة الوحي، الروح القدس.

كان قلبي يزداد انقباضاً كلّما سمعت المزيد من كلامه. وكانت العذراء تواصل تبسّمها، والطفلُ يسوع بادي الحبور. أنا أيضاً، آمنت، فيما مضى، بمثل هذه الأمور؛ لكنّ الزمن والعمر والشعور بأنني كائن يمتلك حسّاً منطقياً وعملياً، قد أبعدتني عن التديُّن. وقلت في سرّي كم كنت لأودّ أن أستعيد إيمان طفولتي الذي

رافقني لسنوات وسنوات، وجعلني أؤمن بالملائكة والمعجزات. ولكنْ كان من المستحيل استعادته بفعلٍ إرادي محض.

تابع:

«كان الأب الرئيس يقول لي: إذا آمنتَ توصَّلتَ إلى العلم. فشرعت أتكلّم وحيداً في محبسي. صلّيت لكي يظهر الروح القدس، ويعلّمني كل ما أرغب في معرفته. وشيئاً فشيئاً، وجدتُ أنني كلّما تكلّمت وحيداً، كان صوت أعلم مني ينطق بالأشياء عن لساني».

قاطعته قائلةً: «هذا يحدث لي أيضاً».

تريّث قليلاً، ظناً منه أني سأتابع حديثي. غير أني كنت عاجزة عن ذلك.

«إني مصغٍ».

كان لساني معقوداً. فقد كان كلامه مذهلاً. ولن أستطيع التعبير بعبارات مماثلة.

قال متابعاً، كأنه حزر ما يجول برأسي:

ــ إن «الأخرى» تريد أن تعود، «والأخرى» تخشى أن تتلفظ بحماقات.

أجبتُ باذلةً ما أمكنني للسيطرة على خوفي:

ــ أجل. عندما أخوض نقاشاً مع أحد ما وتستبدّ بي الحماسة لموضوع ما، أتوصل، في أغلب الأحيان، إلى قولِ أشياء لم أفكِّر فيها من قبل. فيتولّدُ لديّ انطباع بأني أسوقُ ذكاءً ليس لي، وأنه يعلم بأمور الحياة أكثر بكثير مما أعلم أنا. لكنّها حوادث نادرة. ففي أي نقاش أفضّل، بالإجمال، أن أصغي، لاعتقادي بأنني بالإصغاء قد أتعلّم شيئاً جديداً، لكنني، في النهاية، أنسى كلّ شيء.

ــ إن ذواتنا هي أكثر ما يدهش ذواتنا. فمقدار حبّة خردل من الإيمان قد يزحزح تلك الجبالِ، هناك، من مكانها، هذا ما تعلّمته.

واليوم أدهشُ نفسي حين أصغي باحترامٍ لما أقوله بنفسي. لقد كان رسل المسيح صيّادين أمّيين جاهلين. لكنّهم تقبلوا الشعلة المتنزّلة من السماء. لم يخجلوا من جهلهم؛ لأنهم آمنوا بالروح القدس. هذا العطاءُ يُعطى لمن يرغبون فيه. يكفي أن يؤمنوا، أن يقبلوا، ألّا يخافوا من اقترافِ بعض الهفوات.

كانت العذراء تبتسم قُبالتي. كانت كلُّ الأسباب تدعوها إلى البكاء، ومع ذلك كانت تبتسم.

قلتُ راجية:

ــ تابع ما كنت تقوله.

ــ هذا ما كنت أقوله. تَقَبُّل العطاء. وعندئذ العطاء يتجسَّد.

ــ الأمور لا تسير على هذا النحو.

ــ أنتِ إذاً لا تفهمين ما أقول؟

ــ بلى، أفهم. غير أني مثل الناس جميعاً: أخاف. وأحسب أن مثل هذا قد يحدث لكَ، أو لجاري، ولكن ليسَ لي، إطلاقاً.

ــ أجل، ولكن حتّى يكون لنا ذلك، سوف نحسب أننا بلغنا جوار النور، وأننا لا نتمكّن من إيقاد شعلتنا الخاصة.

لم يجب.

قلت له بعد حين:

ــ لم تنهِ حكاية المدرسة الإكليريكية.

ــ ما زلت طالباً فيها.

وقبل أن يبدر مني أي ردّ فعل، نهض وسار باتجاه منصّة الكورس في الكنيسة.

لم أحرّك ساكناً. كان رأسي أشبه بدوامة. فلا أدرك ما الذي يجري حقاً. فهو ما زال في المدرسة الإكليريكية.

كان من الأفضل ألّا أفكر. لقد تهدّم جدار السدّ، وأغرق فيضان الحبّ روحي، فقدتُ كلَّ سيطرة. كان هناك مخرج وحيد: «الأخرى»، تلك القاسية لأنها ضعيفة، الباردة لأنها خائفة، غير أني لم أكن أريدها. فما عدت قادرة على رؤية الحياة من خلالِ عينيها.

تناهى إلى سمعي نغم، فنبهني إلى استغراقي في التفكير، نغم حادّ، متمادٍ، كأنه نغم مزمار عملاق، فأجفلت.

نغم آخر، وآخر أيضاً. التفتُّ إلى الوراء، فإذا بسلّم خشبي يفضي إلى ما يشبه منبراً نافراً، مبايناً لجمال الحجرِ البارد. وعلى هذا المنبر وُضِعَ أرغنٌ قديم.

كان، هو، هناك. لم أكن أميّز وجهه بسبب العتمة السائدة على المكان، غير أنني كنت أعلم أنه هناك.

نهضت، فأوقفني.

قال بصوتٍ ملؤه الانفعال: «بيلار! إبقي حيث أنت». فانصعت. أردف قائلاً: «لتكن الأم العظمى إلهامي، ولتكن الموسيقى صلاتي لهذا النهار!».

شرع بعزف «السلام الملائكي». لا بدّ أنها كانت السادسة مساء. إن وقت صلاة التبشير، الساعة التي تمتزج فيها الأنوار بالظلمات. كانت أصداء نغمات الأرغن تتردّد في أرجاء الكنيسة المقفرة، وتمتزج بالأحجار والتماثيل المتلئة تاريخاً وإيماناً. أغمضت عينيّ تاركةً للموسيقى أن تتخلّلني أيضاً، أن تغسل روحي من المخاوف والآثام، أن تذكّرني بأني أفضل مما أظنّ، وأقوى مما كنت أتخيّل.

انتابتني رغبة قوية في الصلاة، وكانت تلك المرّة الأولى منذ أن حدتُ عن درب الإيمان. ولئن كنت جالسة على هذا المقعد، فإن روحي كانت خاشعةً عند قدمي السيّدة العذراء، تلك الماثلة أمامي، تلك المرأة التي قالت «بلى» حين كان بمستطاعها أن تقول «لا». ولو فعلت لذهب الملاك سعياً وراء امرأة أخرى، ولا تكون بذلك قد

اقترفت خطيئة في عيني الرب، لأنّ الله عليم بضعف أبنائه.
لكنها قالت:

لتكن مشيئتك.

وهي تشعر بأنها تتلقّى، إلى بشارة الملاك، كلّ ألم قدرها وعذابه. واستطاعت ببصيرة قلبها أن ترى آنذاك، الابن الحبيب مغادراً بيته والناس الذين تبعوه ثمّ أنكروه، لكن!

لتكن مشيئتك.

مع أنها، في أكثر اللحظات قدسية من حياة امرأة، كان عليها أن تخالط حيوانات إسطبل، لتضع مولودها، كما جاء في «الكتاب»

لتكن مشيئتك.

مع أنها، إذ استبدّ بها القلق، خرجت تبحث عن طفلها في الدروب، فوجدته في الهيكل. لكنه سألها ألّا تعترضه قطّ، لأن أمامه واجباتٍ ومهمات أخرى،

لتكن مشيئتك.

برغم يقينها أنها ستبقى ساعيةً وراءه بما تبقّى لها من أيام، مطعونة القلب بسكّين الألم، خائفة، كلّ لحظة، على حياته، عالمةً بأنه مطارد مهدّد،

لتكن مشيئتك.

مع أنها، إذ التقته وسط الجموع، لم تتمكّن من الاقتراب منه،

لتكن مشيئتك:

مع أنها، إذ طلبت من أحدهم أن يبلغه أنها هنا لتكلّمه، أبلغها ابنها أنْ: «هؤلاء هم أمّي وإخوتي»،

لتكن مشيئتك.

مع أنّها، إذ انفضّ الجمع ساعة الختام، بقيت وامرأة أخرى وأحدهم عند أسفل الصليب مكابدين سخرية العدو وجبن الأصدقاء،

لتكن مشيئتك.

لتكن، يا ربّ، مشيئتك. لأنك عليم بمكامن الضعف لدى أبنائك ولا تكلّف النفس إلا وسعها. فلتتفهّم حبّي لأنه الشيء الوحيد الذي أملكه حقّاً، الشيء الوحيد الذي قد أحمله معي إلى الحياة الأخرى. فاجعل أن يبقى شجاعاً ونقياً، أن يقدر على البقاء حيّاً، برغم هُوى العالم وعثراته.

سكت الأرغن، واحتجبت الشمس وراء الجبال، كانّ الأرغن والشمس، معاً، ينقادان لمشيئة اليدِ نفسها. لقد كانت صلاته مسموعة والموسيقى كانت هي صلاته. فتحت عينيّ، فإذا بالكنيسة غارقة في الظلام، باستثناء الشمعة المستوحدة التي كانت تنير صورة العذراء.

سمعت وقع خطواته مقترباً مني، وأنار ضياءُ الشمعة الوحيدة دموعي وابتسامتي التي، وإنْ كانت لا تضاهي بسمة العذراء بهاءً، فهي تبرهن على أن قلبي كان لا يزال حيّاً.

كان يحدّق إليّ وكنت أحدّق إليه. راحت يدي تبحث عن يده متلمّسة. أحسستُ بأن قلبه هو الذي بات يخفق بسرعة. وأكاد أسمع خفقاته، لأننا لبثنا، مجدّداً، صامتين.

كانت دَعةٌ تكتنف روحي، وكان قلبي مطمئناً.

أمسكت يده، فضمّني إليه. لبثنا هناك، عند قدمي العذراء، إلى ما لا أدري من الوقت، لأنّ الزمن كان قد توقف.

كانت تتطلّع إلينا: الفلّاحة الصبيّة التي قالت «نعم» لقدرها، المرأة التي قبلت أن تحمل في أحشائها ابن الله، وفي قلبها حبّ «الإلهة». وكان بمستطاعها أن تتفهّم.

لم أكن راغبة في طلبِ أي شيء. كانت اللحظات، التي

قضيناها مساءً في الكنيسة، كافية لتبرير كلّ هذه الرحلة. والأيّام الأربعة هذه كافية لتبرير تلك السنة التي لم يطرأ ما يذكر في غضونها.

لذلك، لم أكن أريد أن أطلب شيئاً. غادرنا الكنيسة يداً بيد. وعدنا أدراجنا إلى الغرفة. كان كلّ شيء يتردّد في رأسي كدوّامة: المدرسة الإكليريكية، الأم العظمى، وموعده ذلك المساء.

عندئذٍ، أدركت أننا، أنا نفسي كما هو، نريد أن نوثق روحينا بالقدر نفسه. ولكن هناك المدرسة الإكليريكية في فرنسا، وهناك سرقسطة. فانقبض قلبي. تطلّعتُ إلى المنازل القروسطية، إلى بئر الليلة الماضية. وتذكّرت صمت وحزن المرأة الأخرى التي كنتها ذات يوم.

«إلهي، إني أحاول أن أستردّ إيماني، فلا تتركني في منتصف قصة مثل هذه». هكذا تضرّعتُ، وأنا أطرد الخوف بعيداً.

نام قليلاً. أما أنا، فمجدّداً بقيتُ مستيقظة، مستغرقةً في تأمُّل إطار النافذة المعتم. ثمّ نهضنا وتناولنا طعام العشاء إلى مائدة العائلة التي تلزم الصمت وقت الطعام، وطلبَ مفتاح البيت.

قال للمرأة:

ـ اليوم سنعود في ساعة متأخرة.

ـ الشبّان في حاجةٍ إلى اللهو. ويجب أن يستغلّوا أيام الإجازة قدر المستطاع.

قلتُ فيما كنا نهمّ بركوبِ السيّارة:

ــ يجب أن أستفسر عن أمر. أحاول أن أجتنب السؤال، لكني لا أقدر.

ــ عن الرهبنة؟

ــ أجل، عن الرهبنة. هذا أمر لا أفهمه.

قلت في سرّي: «وإن كان قد أصبح من غير المجدي فهم أي شيء».

ــ لطالما أحببتك. لقد حظيت بنساءٍ أخريات، لكني لطالما أحببتك. كنت أحتفظ بالمدالية معي على أملٍ أن أعيدها إليك ذات يوم، وأجرؤ أن أقول «أحبك». كلّ دروب العالم كانت تُفضي بي إليك. كنتُ أكتب إليك. وأخافُ، كلّما فتحت رسالةً منك، أن تخبريني في واحدةٍ منها أنّك التقيت أحداً ما. عندها سمعت دعوة الحياة الروحية، أو الأحرى إنني، عندها، قبلت هذه الدعوة لأنّها، مثلك، لطالما كانت ماثلةً في ذهني منذ الطفولة. اكتشفت أن مكانة الله في حياتي من الأهمية بحيث إني لن أكون سعيداً إن تخلّيت عن دعوتي. كان وجه المسيح يتراءى لي في وجه كلّ فقير التقيته عبر تجوالي في أنحاء العالم، فاستحال عليّ ألّا أراه.

وسكت. فآثرتُ ألّا أكون لجوجة. بعد عشرين دقيقة، ركن السيّارة، وترجّلنا منها.

ـ ها قد وصلنا إلى «لورد». لو أنّك ترين كلّ هذا خلال فصل الصيف.

فما كنت أراه لا يعدو كونه بضعة شوارع مقفرة ومخازن مقفلة الأبواب، وفنادق موصودة بشبّاكٍ فولاذٍ عند مداخلها.

أردف قائلاً بكثير من التأثر:

ـ ست ملايين زائر يأتون إلى هنا خلال الصيف.

ـ إنها تبدو في نظري مدينة أشباح.

عبرنا جسراً. وإذا بنا أمام بوّابة حديد ضخمة، على جانبيها تمثالا ملاكين، وأحد مصراعيها مفتوح. فدخلنا.

قلتُ، على الرغم ممّا كنت قد قرّرته منذ دقائق معدودة بألّا أكون ملحاحة: «تابع ما كنت تقوله، احكِ لي المزيد عن وجه المسيح».

شعرتُ بأنّه لا يرغب في متابعة ذلك الحديث. فربّما لم يكن لا المكان ولا الظرف مؤاتيين. ولكن، بما أنّه شرع في الكلام عن الأمر، فقد كان لا بدّ من المضيّ به إلى الآخر.

سلكنا ممرّاً فسيحاً تحانيه مَرَجاتٌ مكسوّة بالثلج. وفي آخره، كان بإمكاني أن أميّز شكلاً فارِعاً للكنيسة.

ردّدت قائلة:

ـ تابع.

ـ تعلمين البقية. دخلت الرهبنة. خلال العام الأوّل، طلبت من الله أن يجعل حبّي لك حبّاً للبشر جميعاً. خلال العام الثاني، شعرتُ بأن الله يستجيب لدعائي. وخلال العام الثالث، كانت مشاعر الندم لا تزالُ بالغة الحدّة. لكنّي، مع ذلك، كنتُ واثقاً، كل الثقة، أن هذا الحبّ يستحيل تدريجاً إحساناً وصلاة وعوناً للمعْوَزين.

ـ لِمَ سعيت مجدّداً، إذاً، لرؤيتي؟ لِمَ أوقدت فيَّ مجدّداً هذه النار؟ لِمَ حدّثتني عن تمرين «الآخر» وأقنعتني بحقارة وجودي؟.

كانت العبارات تتدافع بما يشبه الهذيان على لساني، وكان صوتي مرتجفاً. فقد كنت أراه، بين دقيقة وأخرى، أقرب إلى الرهبنة منه إليّ.

ـ لِمَ عُدت؟ لِمَ لَمْ تخبرني كل هذا إلّا اليوم بالذات، وقد أدركتَ جيّداً بأنني بدأتُ أحبّك؟.

تريّث قليلاً قبل الإجابة:

ـ سوف تجدين أنها حماقة.

ـ لن أجد شيئاً على الإطلاق. ما عدتُ أخشى أن أبدو تافهة. لقد علّمتني ذلك.

ـ منذ شهرين، طلب مني الأب الرئيس أن أصحبه إلى بيت امرأة كانت قد أوصت، عند وفاتها، أن تَهِبَ كلّ ما ملكته لرهبنتنا. كان بيتها في سان سافان، وكان عليه أن يجري جَرْدة بأملاكها.

كنّا نقترب، ببطء من الكاتدرائية. وكان حدسي ينبئني بأن حديثنا سيتوقف حالما نصل إليها.

قلت:

ـ لا تتوقف عن الكلام. فمن حقّي أن أفهم.

ـ «ما زلت أذكر لحظة دخولي ذلك البيت. كانت نوافذه مطلّة على البيرنيه، ونور الشمس المضاعف بوهج الثلج يجعل كلّ شيء مشرقاً. شرعت بإعداد لائحة، ولكنّي توقّفت عن ذلك بمضيّ دقائق معدودة. لقد لاحظت أن ميول تلك المرأة كانت بالضبط مثل ميولي أنا. فقد جمعت لديها الأسطوانات التي كنت أود أن اشتريها، والموسيقى التي كنت أودّ أن أسمعها مستغرقاً في تأمل ذلك المنظر. كانت رفوف مكتبتها مليئة بالكتب التي قرأت بعضها. وكنت لأودّ حقاً أن أقرأ بعضها الآخر. ثم أمعنت النظر في

قطع الأثاث واللوحات والتحف الصغيرة الموزّعة في الأرجاء، كانت كلّها كأنني اخترتها بنفسي.

«منذ ذلك اليوم لم أكفّ عن التفكير في ذلك البيت. وكلّما ذهبت إلى الكنيسة لأصلّي، وجدتني محدّثاً نفسي بأن ما نذرته من نكران للذات ليس تامّاً عندي. كنت أتخيّلني هناك معك، مقيمَين في بيت مشابه لذاك البيت، منصرفَين إلى سماع الموسيقى، وتأمُّلِ الثلج على قمة الجبل قرب نيران المدفأة. أتخيّل أولادنا راكضين في أرجاء البيت، لاهين في البرية بنواحي سان سافان».

لم أطأ من قبل عتبة ذاك البيت، غير أني كنت أعلم بالضبط ما يشبه أن يكون. وكان رجائي عندئذ ألا يقول المزيد، كيما أستسلم للحلم.

لكنه تابع قائلاً:

«منذ أسبوعين تقريباً، شعرت باني بتُّ لا أستطيع مكابدة ذلك الحزن في نفسي. فذهبت لمقابلة الأب الرئيس. حكيت له قصة حبّي لك، وما الذي شعرت به عندما ذهبت لإنجاز تلك الجَزْدة».

راح رذاذٌ خفيفٌ يهمي. حنيت رأسي وزررتُ سترتي جيّداً. كنت خائفةً من سماع التتمة.

«عندئذٍ قال لي الأب الرئيس: هناك طرقٌ كثيرة لخدمة الرب. فإذا كنتَ تحسب أن هذا قدرك، فاذهب لإتمام قدرك. وحده المغتبط قادرٌ على إشاعة الغبطة من حوله.

« أجبته قائلاً: ـــ لا أدري إذا كان هذا حقّاً قدري. لقد اهتديت إلى طمأنينة القلب عندما قرّرتُ دخولَ هذا الدير.

« ـــ إذاً إذهب إلى هناك، وبدّد كلّ شك: فإمّا أن تجعل العالم ملاذاً، وإمّا أن تعود إلى الرهبنة. المهمّ أن تكون، بكلّيتك، حيث تختار أن تكون. إن مملكة منقسمة على نفسها لا تصمد في وجهِ غزوات العدوّ. والكائن المنقسم على نفسه لا يُفلح في جَبْهِ الحياة كما ينبغي.

«دس يده في جيب ثوبه، وأخرج شيئاً منه، ثمّ أعطاني إيّاه. كان مفتاحاً.

«لقد أعارني الأب الرئيس مفتاح ذلك البيت. وأشار عليَّ بالتريّث قليلاً قبل عرضٍ محتوياته للبيع. أعلم أنه كان يريدني أن أذهب بصحبتك إلى هناك. هو الذي نظّم تلك المحاضرة، في مدريد، لكي يتاح لنا أن نلتقي مجدداً».

تطلّعت إلى المفتاح في يده واكتفيت بالابتسام؛ مع أني، في أعماقِ ذاتي، كنت أشعرُ بأنّ أجراساً تقرع وتُفتحُ أبواب السماء. سوف يخدم الربّ بطريقة أخرى، بجواري. لأني سأقاتل من أجل ذلك.

قال: «خذي هذا المفتاح».

مددت يدي، ودسست المفتاح في جيبي.

كانت الكاتدرائية قد أصبحت أمامنا. وقبل أن أتمكّن من التلفُّظ بأي كلمة، لمحه أحدٌ ما، وجاء ليلقي عليه التحيّة. كان المطرُ غزيراً، وكنت أجهل كم من الوقت سوف نمكث هناك. وما كانت تنقضي ثانية واحدة من دون أن أذكُر نفسي بأني لم أحضر معي ملابس إضافية، وبأني لا استطيع أن أبقى بملابسي المبلّلة.

حاولتُ أن أحصر تفكيري في هذه الفكرة. إذ لم أكن راغبةً في التفكير في البيت، وفي تلك الأمور المعلّقة بين سماء وأرض، بانتظار يَد القدر.

ناداني وعرّفني على بعض الأشخاص. سألنا هؤلاء أين نقيم. وعندما أتى على ذكر سان سافان، قال أحدهم إن ناسكاً قدّيساً مدفون هناك. وهو الذي اكتشف، فيما يبدو، البئر القائمة وسط الساحة. وكان القصد في البداية إيجاد ملاذ لرجال الدين الذين يهجرون حياة المدن، ويسعون في الجبال بحثاً عن الله.

قال آخر: «ما زالوا، إلى الآن، هناك».

لم أدرِ إذا كانت القصة صحيحة، كما لم أعرف من يكون هؤلاء الناس الذين «ما زالوا، إلى الآن، هناك».

انضمّ إلينا آخرون، واتجهت المجموعة كلّها نحو مدخل المغارة، ثمّة رجلٌ، بدا متقدِّماً في السنّ قليلاً، حاول أن يخاطبني

بالفرنسية. وإذ، تنبَّه إلى الجهدِ الذي أبذله لكي أفهم ما يقول، خاطبني بإسبانية تقريبية، قائلاً:

«أنت برفقة كائن استثنائي. رجل يجترح المعجزات».

لم أجب شيء، لكنني تذكّرت تلك الليلة في بيلباو، عندما جاء رجلٌ يائس في طلبه. لم يحكِ لي إلى أين ذهب، وما كنت أنا لأعير الأمر انتباهاً. كانت أفكاري كلّها تدور حول بيتٍ أعرف بالضبط ما يشبه أن يكون. الكتب التي فيه، والأسطوانات، والمنظر، والديكور.

في مكان ما من العالم، كان هناك بيت ينتظر قدومنا، ذات يوم. بيتٌ سأنتظر فيه بقلق ريثما يعود من المدرسة طفل أو طفلة. هما بشيرُ بهجة وطيش.

سارت المجموعة بصمت، تحت المطر، ووصلنا إلى موضعِ الرؤى. كان بالضبط كما تخيلته: المغارة، تمثال السيدة العذراء، ونافورة الماء، وراء واجهة من الزجاج، في المكان الذي جرت فيه معجزة الماء. بعض الحجيج كان يُصلّي والبعض الآخر كان جالساً في المغارة، بصمت، مغمض العينين. كان نهر يجري أمام المغارة، وكان خرير مياهه يهدّئ من روعي. وإذ رأيتُ تمثال العذراء، تلوتُ صلاةً قصيرة: سألت العذراء أن تكون في عوني، لأنَّ لا رغبة لقلبي في أن يقاسي المزيد من الألم.

تضرَّعتُ، قائلة: «إذا كان المُقبل هو الألم فليحلَّ مُسرعاً، لأنّ حياتي ما زالت أمامي، ويجب أن أحياها على أفضلِ نحوٍ ممكن. إذا كان عليه أن يختار، فليفعل على الفور. وإذ ذاك سأنتظره. أو أنساه. الانتظار مؤلم. والنسيان مؤلم. لكنَّ أشقى العذابات هي ألّا ندري ما القرار».

من أعماقِ قلبي أحسستُ بأنها سمعت تضرُّعي.

الأربعاء ٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٣

عندما دقّت ساعة برج الكاتدرائية معلنة حلول منتصف الليل، كانت المجموعة التي أحاطت بنا قد ازدادت عدداً على نحو ملحوظ. كنّا قرابة المئة شخص، من بينهم عدد من الرهبان والراهبات، واقفين تحت المطر، وعيونهم شاخصة بتمثال العذراء.

قال واحد منهم كان بقربي، ما إن توقّفت ضربات الساعة: «سيّدة الحبل بلا دنس عليكِ السلام».

أجاب الجمع: «عليكِ السلام».

تبعت ذلك موجة تصفيق.

وعلى الفور، اقترب منا شرطي ليطلب منّا ألا نحدث ضجيجاً، لأننا بذلك نزعج الحجيج الآخرين.

قال أحد أفراد المجموعة: «إننا قادمون من مسافات بعيدة».

أجابه الشرطي، مشيراً إلى المؤمنين الخاشعين تحت المطر: «وهم أيضاً، لكنهم يصلّون بصمت».

كنت أودّ لو أن الشرطي وضع حدّاً لاجتماعنا. كنت أريد أن أختلي به بعيداً من ذاك المكان، ممسكة يديه بيديّ، مُسِرّةً إليه بحقيقة مشاعري. كنّا في حاجة إلى التداول بشأن البيت، والاتفاق على خطط المستقبل، والكلام على الحب. وكنت أحتاج إلى طمأنته، إلى إبداء رقّتي حياله على نحو أفضل، إلى تأكيدي أنّه سيتمكن من إحقاق حلمه، لأنني سأكون بجواره، لأعينه على ذلك.

لم يلبث الشرطي أن ابتعد، فراح أحد الرهبان يتلو صلوات السبحة بصوتٍ خفيض. وعندما شرعنا بتلاوة «نؤمن بإله واحد»، التي هي خاتمة الصلوات، صمت الجميع مبقين عيونهم مغمضة.

سألت:

ـ من هم هؤلاء الناس؟

ـ إنهم كاريزميون.

كنت قد سمعت هذه التسمية من قبل، ولم أكن أعرف معناها. ولا بدّ أنه أدركَ ذلك، فأردف قائلاً:

«إنهم أولئك الذين يتقبّلون قبس الروح القدس. القبس الذي خلّفه يسوع، والذي منه قلّة من الناس أضرمتْ شعلتها. إنهم قريبون من الحقيقة الأصلية للمسيحية، يوم كان من شأن كلّ الناس اجتراح المعجزات». وأضاف قائلاً، وهو يشير بعينيه إلى العذراء: «إنهم أناس يهتدون بالسيّدة المسربلة بالشمس».

عندئذ، راحت المجموعة تنشدُ التراتيل بصوتٍ خفيض، مثل كورس تقوده يدٌ خفية.

ـ أنت ترتعدين من البرد. لست مجبرة على البقاء.

ـ وأنت، هل ستبقى؟

ـ أجل. إنّها حياتي.

ـ إذاً أنا أيضاً سأبقى، مع أني كنت أفضّل أن أكون بعيدة من ذلك المكان. إذا كان هذا عالمك، فإني أريد أن أتعلّم كيف أنتمي إليه.

كانت المجموعة مسترسلةً في تراتيلها. أغمضت عينيّ، وحاولت أن أتتبّع الكلمات برغم فرنسيتي الركيكة. كنت أردّد الكلمات بحسب لفظها من دون أن أدرك معناها. غير أن ذلك قد أعانني على تزجية الوقت بسرعة. فعمّا قريب ينتهي كلّ هذا، وسنتمكّن عندها من الرجوعِ إلى سان سافان وحدنا نحن الاثنين.

تابعت الترتيل، إذاً، بوتيرةٍ آلية. وشيئاً فشيئاً، لاحظت أن الموسيقى تتملَّكني، كأنّ لها حياتها الخاصة بها، وكأنها قادرة على تنويمي. زال عني إحساسي بالبرد، وما عدت أبالي لا بالمطر ولا بحقيقة أنني لا أملك ملابس غيار. كانت الموسيقى تهدهدني، تُبهج نفسي، وتحملني إلى زمن كان اللهُ فيه أقرب، وكان في عوني.

وفيما كنتُ على وشك الاستسلام لها كلّياً، سكتت الموسيقى.

فتحتُ عينيّ. كان أحد رجال الدين يتحدّث إلى أحد رهبان المجموعة. وإثر محادثة قصيرة بصوتٍ خفيض، غادر مبتعداً.

استدار الراهب نحونا:

«سوف نتلو صلواتنا عند الضفة المقابلة من النهر».

بصمتٍ سرنا نحو المكان المقصود. عبرنا الجسر الذي يقع قبالة المغارة تقريباً، وانتقلنا إلى الضفّة الأخرى. كان المكانُ هناك أجمل: أشجار، ومرجةٌ فسيحة، والنهر. ومن هناك كان بمقدورنا أن نرى التمثال مضاءً وأصواتنا تُنشد بحريّةٍ أكبر، إذ لا ينتابنا الشعور المزعج بأننا نُعيق صلاة الآخرين. راح الناس يرتّلون بصوتٍ أعلى، ورفعوا وجوههم نحو السماء، وابتسموا، فيما قطرات المطر تسيلُ على خدودهم. رفع أحدهم ذراعه، وفي لحظة واحدة، كانت كلّ الأذرع مرفوعة، والأجساد متمايلةً على إيقاع الموسيقى.

كنتُ أحاول بكلّ قواي أن استسلم لما يجري. لكنني، في الوقت نفسه، كنت أريد أن أراقب ما يفعلون. كان أحد الرهبان بقربي ينشد بالإسبانية، وحاولت أن أردّد كلماته. كانت ابتهالات للروح القدس والعذراء، ليكونا حاضرين وليشيعا بركاتهما وقدراتهما على كلٍّ واحد منا.

قالَ راهب آخر: «فلتنزَّل هبة اللغات علينا». وردَّد العبارة نفسها بالإسبانية والإيطالية والفرنسية.

لم أدرك جيداً ما الذي حدث فيما بعد. راح كلٌّ منهم يتكلّم بلغة لا تنتمي إلى الشائع من اللغات. كانت أشبه بضوضاء منها

بلغة، وبدت العبارات منبثقة مباشرةً من الروح، بلا معنى. فتذكّرت على الفور حديثنا في الكنيسة، عندما كلّمني عن الوحي، وقال إنّ المعرفة كلها تكمن في إصغاءٍ واحدنا إلى روحه.

قلت في سرّي، جاهدةً في مجاراة ما يفعلونه، شاعرةً بأني مثيرة للضحك: «ربّما كانت هذه لغة الملائكة».

كان الجميع يتطلّعون إلى العذراء، في الجهة المقابلة، ويبدون في حالة وَجْد. جلت بأنظاري بحثاً عنه، فلمحته واقفاً على بعضِ المسافةِ مني. كانت يداه مرفوعتين نحو السماء. وكان، هو أيضاً، يتلفّظ بعبارات متلاحقة، كأنه يتحدّث إليها. كان يتبسّم، ويشير برأسه موافقاً، وأحياناً تبدو عليه سمات الدهشة.

قلت في سرّي: «ذاك هو عالمه».

بدأتُ أشعر بالخوف ممّا أرى. فالرجل، الذي أراد أن يكون بقربي، كان يؤكّد أن الله امرأة أيضاً، ويتكلّم بلغات غير مفهومة، ويستلبه الوَجْد، ويبدو قريباً من الملائكة. أما البيت الجبلي، فقد أصبح أقلّ واقعية، كأنه ينتمي إلى عالم كان قد غادره.

كل الأيام المنصرمة، منذ محاضرة مدريد، كانت تبدو لي هنيهةً في حلم يقظة، رحلة خارج زمان وجودي ومكانه. ومع ذلك، كان لحلم اليقظة هذا طعم الدنيا، نكهة الرواية، ومغامرات جديدة. وبرغم كلّ ما أضمره من مقاومة، فإنني كنت أعلم جيداً أنه من اليسير أن يلهب الحبُّ قلبَ امرأة، وأن المسألة مسألة وقتٍ فقط قبل أن أدع الرياح تعصف، وأن أدع المياه تجتاح السدّ. ومهما زعمت أنني في البداية لم تكن لدي أية رغبة في أي شيء، فقد أحببت، وكنتُ أتخيّلني عالمةً كيف تُجبه مثل هذه المواقف. ولكنْ، في هذه الحال، كان شيءٌ ما يفوق إدراكي. إذ لم تكن تلك هي الكاثوليكية التي لَقِنْتُها في المدرسة. ولم تكن تلك هي الصورة التي أرى فيها شريك حياتي.

قلت في سرّي: «شريك حياتي... إنه لأمر غريب حقاً!». وقد فاجأني ما تبادر من العبارات إلى ذهني.

أمام هذا النهر وهذه المغارة، شعرت بالخوف والغيرة: الخوف لأنّ كل ذلك كان جديداً عليّ، ودائماً كل جديد يخيفني بعض الشيء. والغيرة لأني، شيئاً فشيئاً، كنت أدرك أنّ حبّه أكبر ممّا كنت أظن، ويتّسع رحباً ليشمل نطاقاتٍ لم أدخلها من قبل.

قلت: «اغفري لي، أيتها القديسة العذراء. اغفري لي إذا بدوت ضعيفة، حقيرة، وغرضي أن أحتفظ لنفسي بحبّ هذا الرجل كلّه».

وماذا لو كانت دعوته حقاً أن يعتزل العالم، وينعزل في الدير منصرفاً إلى التحدُّث مع الملائكة؟ كم من الوقت سيكون بإمكانه أن يقاوم قبل أن يهجر البيت والأسطوانات والكتب، لكي يستأنف دربه الحقّ؟ أو حتى لو لم يرجع إلى الرهبنة مطلقاً، فما مقدار الثمن الذي سيترتّب عليّ، تلقاء الاحتفاظ به بعيداً من حلمه الحقّ؟

كان الجميع مستغرقين في ما يفعلونه، إلّا أنا: كانت عينايّ شاخصتين إليه، وهو يتكلم بلغة الملائكة.

وسرعان ما استحال الخوف والغيرة شعوراً بالعزلة. كان بمقدور الملائكة أن تُخاطب أحداً، فيما كنتُ، أنا، وحيدة.

لا أدري ما الذي حداني على محاولة النطق بتلك اللغة الغريبة. ربّما كانت تلك الحاجة الطاغية لأن أنضمّ إليه، والتعبير عمّا يعتمل بداخلي. وربّما الحاجة لأن أدع نفسي تفصحُ بحرية عمّا بها، فقد كان قلبي يغصُّ بالأسئلة، ويطلب الإجابات عنها بأي ثمن.

لم أكن أعلم بالضبط ما العمل، كان إحساسي بسخف ما أرى قوياً جداً. ولكن كان هنا، بين الجمع، رجال ونساء من الأعمار كافة، رهبان وعلمانيون، تلاميذ رهبنة وراهبات، طلاب، وأناس

متقدمون في السن. أمدّني ذلك ببعض الشجاعة، فطلبت من الروح القدس أن يعينني على تجاوز حاجز الخوف.

قلت في سرّي: «حاولي. يكفي أن تفتحي فمك، وأن تمتلكي الجرأة على النطقِ بعبارات لا تفهمينها. حاولي».

صمّمت على المحاولة. ولكن، قبل ذلك، ابتهلت لكي تكون الليلة مثابة تجلٍّ، مثابة بداية جديدة لي.

بدا لي أن الله استجاب لدعائي. فتدفّقت الكلمات من فمي بطلاقة أكبر. زال عني الخجل، وعظمت ثقتي بنفسي، وانحلّت عقدة لساني تدريجاً. ومن دون أن أفهم ما أقول، رحت أنطق بكلماتٍ متّصلةٍ ذات معنى لروحي.

لمجرّد أني تجرأت على النطق بكلماتٍ غير مفهومة، شعرت بغبطة عظيمة. فقد كنت مطلقة الحريّة، ولا حاجة بي لأن أسعى لتفسير أفعالي. وكانت حريتي تلك تقودني إلى السماء، حيث كان حبٌّ أعظم يغفر كلّ شيء، ولا يشعر أبداً بأنه مهمل، يلاقي عودتي إليه.

كنت أقول في سرّي: «يبدو لي أني أستردّ إيماني»، وأنا مذهولة لحجم المعجزات التي يستطيع الحبّ أن يجترحها. كنت أشعر بالعذراء إلى جواري، تحضنني بين ذراعيها، تدثّرني بمعطفها، وتبذل لي الدفء. وكانت العبارات الغريبة تتدفّقُ أسرع فأسرع من فمي.

جعلت أبكي من دون أن أنتبه. كانت البهجة تملأ قلبي، وتغمرني. كانت أقوى من المخاوف، وأقوى من حقائقي البائسة، ومن محاولاتي للتحكّم بكل ثانية من وجودي. كنت أعلم أنّ تلك الدموع هي أعطية، لأنّ الراهبات، في المدرسة، قد علّمنني أنّ القديسين يبكون من فرطِ وجْدِهِم. فتحت عينيّ، تأمّلت عتمة السماء، وأحسست بدموعي تمازج المطر. كانت الأرض زاخرة بالحياة، فالماء المنهمر يُجدّد معجزة ربِّ السماوات. وكنّا جزءاً من تلك المعجزة.

وفيما الآخرون ينشدون، قلت بصوت خفيض: «إذاً، قد يكون الله امرأة. حسناً. وإذا كان الأمر كذلك، فإن وجهه الأنثوي هو الذي علّمنا الحب».

قال الراهب بالإسبانية والإيطالية والفرنسية: «سوف نصلّي معاً في مجموعات من ثمانية».

اقترب أحدهم مني، وبَسَط ذراعه فوق كتفي. جاء آخر وفعلَ مثله من الجهة الثانية. هكذا شكّلنا دائرة من ثمانية أشخاصٍ متشابكي الأذرع. ثمّ انحينا إلى الأمام، فتلامست رؤوسنا. وكانت وضعيتنا تلك تجمع كلّ طاقاتنا وكلّ حرارتنا.

قال الرجل الذي بسط ذراعه على كتفي اليمنى: «فلتشفع سيّدة الحبل بلا دنس لابني ولتكن عونه في الاهتداء إلى طريقه. أطلب منكم تلاوة السلام الملائكي من أجل ابني».

أجاب الآخرون مجتمعين: «آمين». وشرع الأشخاص الثمانية بتلاوة السلام الملائكي.

كان كلٌّ منهم يُعبّر عن أمنية، فيشترك الجميع في الصلاةِ لتحقّقها. كان اشتراكي معهم مفاجأة لذاتي، لأني كنت أصلّي مثل طفلة. ومثل طفلة كنت أؤمن إيماناً راسخاً بأنّ تلك النِعَم سوف تُنال.

صمتت المجموعة، لجزءٍ من الثانية، فادركتُ أنه جاء دوري لأعبّر عن أمنية. في أي ظرفٍ آخر، كنت لأذوب خجلاً حيال موقف مماثل، لكنّ هناك كان ثمة حضور، وكان ذاك الحضور يمنحني الثقة بنفسي.

قلت: «لتعلّمني سيّدة الحبل بلا دنس أن أحبّ مثلها. وليعظّمني هذا الحبّ، وليعظّم الرجلَ الذي خبّي به. فلننشد السلام الملائكي».

تلونا الصلاة معاً، فانتابني مجدّداً شعورٌ بالحرية. لسنوات طويلة،

عانـدتُ قـلـبي لأني كـنـت أخـاف مـن الحـزن، مـن الـعـذاب، مـن الـهـجـر. ولطالما أدركتُ أن الحبَّ فوق كلّ هذا، وأن من الأفضل أن نموت إذا لم نـحـبّ. غـيـر أنـنـي كـنـت أظـن أن الآخـريـن فـقـط يمـتـلـكـون الشجاعة. وإذا بي، في تلك اللحظة، أكتشف، أنني، أنا أيضاً، قادرة عـلى ذلك. حـتـى لـو كـان مـآلـه الـهـجـر والـعـزلـة والحزن، فإن الحب يستَحِقُّ كلَّ ما نكابده في سبيله.

«الأحـرى أن أكـفّ عـن الـتـفـكـيـر فـي هـذه الأمـور، إذ يـنـبـغـي أن أحصر اهتمامي بالشعائر التي نؤديها».

طـلـب الـراهـب مـن المجـمـوعـات أن تـتـفـرق، وأن نـصـلّـي مـن أجـل المرضى. ومـن حـين إلى آخـر، كـان الجـمـيـع يـسـتـرسـلـون مـجـدّداً فـي الكلام بلغات غريبة، وفي التلويحِ بأذرعهم الممدودة نحو السماء.

قالت امرأة: «هناك امرأة بيننا كنَّتها مريضة. فلتعلم أن كنّتها موشكة في هذه اللحظة على الشفاء».

استأنف الجميع صلواتهم ومعها تراتيل الفرح.

فـيـمـا بـعـد، شـرح لـي أن ذاك يـدعـى هـبـة الـتـنـبـؤ، وأن بـعـض الأشخاص قادرون على استشعار ما يجري في مكان بعيد، أو ما قد يحصل في مستقبل قريب.

ولـكـنْ حـتـى لـو لـم يـعـلـمـنـي بـذلك، كـنـت مؤمـنـة بـقـوة ذلك الصوت الذي تحدّث عن معجزات. وكـان رجائي، في لحظة ما، أن يُلمّح الصوتُ إلى الحبّ الذي يجمع شخصين حاضرين فـي عـداد المجموعة. كـان رجائي، بلى، كان رجائي أن أسمعه معلناً أن هذا الحبّ مبارك من قبل كل الملائكة وكل القديسين، ومبارك من «الله» و«الإلهة».

أجهل كم استغرق من الوقت طقس التراتيل ذاك، والرقص والأذرع المرفوعة نحو السماء، والصلوات المبتهلة للمعجزات والشفاعات. فجأة، قال الراهب الذي كان يترأس الشعائر: «الآن سوف ننشد ونصلّي من أجل كلّ الذين شاركوا في هذا التجنُّد اللذي للمرة الأولى».

وهكذا أدركت أنني لم أكن الوحيدة، فشعرت باطمئنان.

أنشد الحضورُ مرتِّلين. غير أنني هذه المرة اكتفيت بالإصغاءِ، طالبةً أن تتنزّل الشفاعات لأجلي. فقد كنتُ في أمسّ الحاجة إليها.

قال الراهب: «وسوف نتلقّى المباركة».

استدار الجميع باتّجاه المغارة المضاءة على الضفّة الأخرى من النهر. تلا الراهب عدداً من الصلوات، وباركنا. وإذ ذاك، تبادل الجميع القبلات فيما بينهم، متمنّين بعضهم لبعض «عيد حبل بلا دنس سعيداً». وذهب كلٌّ إلى سبيله.

اقترب مني. بدا لي مبتهجاً أكثر من المعتاد:

ــ ثيابك مبلّلة.

أجبته ضاحكة:

ــ وثيابك أيضاً.

ركبنا السيّارة، وعدنا أدراجنا إلى سان سافان.

كنت أنتظر تلك اللحظة، بفارغ الصبر؛ لكنني، وقد بلغتها، لم

أدرِ ماذا أقول. كنت عاجزةً عن الكلام على أيّ شيء، لا البيت الجبلي ولا الشعائر ولا الكتب ولا الأسطوانات ولا اللغات الغريبة ولا صلوات الجماعة.

كان يحيا في عالمين. وفي لحظةٍ من الزمن، كان هذان العالمان يندمجان ليُصبحا عالماً واحداً، وكان عليّ أن أكتشف كيف.

غير أن الكلمات، للمناسبة، ما كانت لتجدي نفعاً. فالحبّ يُكتشف في فعلِ الحب.

قال عندما دخلنا الغرفة: «لم يبق لي سوى كنزة واحدة. خذيها، سوف أشتري لنفسي واحدة أخرى».

ــ سنضع الملابس على قضبان المدفأة، وستجفّ حتى الغد. وبأية حال، هناك البلوزة التي غسلتها أمس.

ثمّ ساد صمت بيننا لبعض الوقت.

ملابس. عارية. برد.

آخر الأمر أخرج من حقيبته بلوزة قطنية أخرى.

ــ هاكِ، تبدو ملائمة للنوم.

ــ بالتأكيد.

أطفأتُ الإنارة. وفي العتمة، خلعتُ ملابسي المبلّلة، وفردتها على قضبان المدفأة بعد أن أدرت زرّها إلى أقصاه.

كان نور مصباح الإنارة في الخارج كافياً لكي يميّز خيالي في الظلمة، ويرى أنني عارية. ارتديت القميص القطنية، واندسست تحت أغطية سريري.

سمعتُه يقول:

ــ أحبك.

ــ إني أتعلّم كيف أحبّك.

أشعل سيكارة، وقال:

ــ أتعتقدين أن اللحظة المناسبة سوف تأتي؟

كنتُ أعلم ما يقصد بقوله هذا. نهضتُ وذهبت لأجلس على طرف سريره.

كانت سيكارته المشتعلة تنير وجهه بين الفينة والفينة. أمسك يدي ولبثنا على هذا النحو، هنيهات. داعبتُ شعره.

ـــ ما كان ينبغي أن تطرح السؤال. الحب لا يطرح الكثير من الأسئلة. لأننا عندما نبدأ بالتفكير، نبدأ بالإحساس بالخوف. إنه خوف لا يمكن تفسيره، فلا طائل في أن نعبّر عنه بالكلمات. ربّما كان الخوف من الشعور بأننا محتقرون، بأننا غير مقبولين، أو الخوفُ من إفسادِ فتنة اللحظة. قد يبدو الأمر سخيفاً، لكنّه صحيح. لذلك لا نطرح أسئلة، بل نفعل. كما قلتَ أنت مراراً، نجازف.

ـــ أعلم. لم أسأل من قبل.

أجبتهُ كأني لم أسمع ما قاله:

ـــ قلبي أصبح لك، بإمكانك أن ترحل غداً، لكننا دائماً سنحتفظ بذكرى معجزة هذه الأيام التي نعيشها الآن، الحب الرومانسي، الممكن، الحلم. لكني أعتقد أن الله، بحكمته اللامتناهية، قد خبّأ الجحيم وسط الفردوس، كيما دائماً نبقى متيقظين. كي لا ننسى تذكار المشقة في غمرة انغماسنا في بهجة الرحمة.

أحسستُ بملمسِ يديه قوياً على شعري.

همس قائلاً: «أنت تتعلّمين بسرعة».

كنتُ مذهولةً لما قلته. ولكن إذا أقرّ واحدنا بأنه يعلم، فإنه سيعلم في آخر الأمر.

«لا تظنّ بأنني لا أُمَسّ. لقد عرفت رجالاً كثيرين في حياتي. حتّى إني ضاجعتُ أناساً لم أكد أعرفهم».

كنت أحاول أن أتصرف بتلقائية، ولكني أدركت، من طريقته في لمسِ رأسي، أن كلامي كان قاسياً عليه.

«ومع ذلك، منذ هذا الصباح، استعدت بكارتي على نحوٍ غامض. لا تحاول أن تفهم، وحدها المرأة بإمكانها أن تفهم ما أقول. فما زلت في مرحلة اكتشاف الحبّ من جديد. ومثل هذا يتطلّب وقتاً».

ترك شعري ولمسَ وجهي. قبّلته برفق على شفتيه، وعدتُ إلى سريري.

لم أكن مدركة السبب الذي جعلني أتصرف على هذا النحو. ولا أدري إذا كنت قد فعلت ما فعلت لكي أزيده تعلّقاً بي أم لأدعه حزناً. لكن نهاري كان شاقاً وطويلاً، وكنت متعبةً لا أقوى على التفكير.

قضيت ليلة غاية في الهدوء. شعرتُ للحظةٍ بأني مستيقظة. كانت خضرة أنثوية تمسك بي من كتفيّ، وكان يُخيّل إلي أنني لطالما عرفتها: كنتُ أشعر بأنني في أمان، بأنني محبوبة.

استيقظت عند السابعة صباحاً، جزاء الحرارة الخانقة في الغرفة. ذلك أني كنت قد ضبطت حرارة المدفأة على أقصاها، ليلة أمس، لكي تجفّ الملابس. كانت العتمة ما زالت سائدةً، فحاولت أن أغادر السرير من دون ضجّة لكي لا أوقظه.

وإذ نهضتُ، تنبهتُ إلى أنه لم يكن هناك. بدأت أفقد أعصابي. وعادت «الأخرى» على الفور لتقول لي: «أرأيتِ؟ ما إن قبلتِ حتى رَحَل. مثل كل الرجال».

كان الهلعُ يستبدُّ بي ويزيدُ مع انقضاء الثواني. وكان ينبغي أن أهدأ. لكنّ «الآخرى» لم تكفّ عن الكلام: «ما زلتُ هنا. لقد أتحتِ للريح أن تبدّل وجهتها، وفتحت الباب، فصار الحبّ مستبداً بكيانك. ولكن إذا استدركنا الأمر بسرعة أمكننا السيطرة على الموقف مجدّداً».

كان عليَّ أن أفعل شيئاً. أن أقوم ببعض الترتيبات.

كانت «الأخرى» تردّد تكراراً: «لقد رحل. ويجب أن تُغادري هذا الجحر من أقاصي العالم. ما زالت حياتك في سرقسطة مضمونة:

عودي إليها دونما إبطاء، قبل أن تفقدي ما تمكّنتِ من الحصول عليه. بمشقة كبيرة».

قلت في سرّي: «لا بدّ أن له مبرّراته».

أجابت «الأخرى»: «الرجال لهم دائماً مبرّراتهم لكن الواقع هو أنهم دائماً يهجرون، في آخر الأمر، النساء».

«حسناً. يجب أن أعثر على وسيلة للانتقالِ إلى إسبانيا. المهمّ أن ينهمك ذهني بشيءٍ ما».

كانت «الأخرى» تقول: «لنفكّر أوّلاً في الناحية العملية: النقود».

كنت مفلسة. فما يجب أن أفعله أوّلاً، هو أن أذهب للاتصالِ هاتفياً بأهلي، على حساب المتلقّي، ثمّ الانتظار ريثما يصلني ما أسدّد به تكاليف الرحلة.

«لكننا في فترة عطلة: ولن تصل النقود قبل يوم غد. فكيف أتدبّر مسألة الطعام؟ وكيف أشرح لمالكي البيت أنّه سيتعيّن الانتظار يومين آخرين، ريثما أتمكّن من تسديد حساب الغرفة؟».

أجابت «الأخرى»: «الأفضل ألّا تقولي شيئاً. فهي، بالطبع، ذات خبرة، وبمقدورها أن تعالج مثل هذه المواقف. ليست مجرّد صبيّة عاشقة أذهبَ الغرام رأسها، بل امرأة لطالما أدركت ماذا تريد. يجب أن ألبث حيث أنا، كأنّ شيئاً لم يكن، كأنه سيعود. وعندما تصلني النقود أسدّد ما عليّ تسديده وأغادر.

قالت «الأخرى»: «عظيم، أراكِ تعودين كما كنتِ. لا تحزني. فذات يوم، سوف تلتقين أحداً ما، رجلاً تحبّينه من دون مجازفات».

ذهبتُ لتفقّد ملابسي على المدفأة. كانت جافّة. وبقي أن أسأل أين عساني أجد مصرفاً في هذه النواحي، وأن أجري اتصالاً هاتفياً. كان عليّ أن أفكّر في كلّ هذه الأمور. فطبيعي ألّا يتسع وقتي للشكوى والبكاء.

عندئذٍ، انتبهت إلى الرسالة التي تركها:

ذهبت إلى الدير. جهّزي حقيبتك، سوف نعود الليلة إلى إسبانيا. سأعود عصراً.

وكتب متابعاً: أحبّك.

ضممتُ الرسالة إلى صدري، وشعرتُ بمزيج من التعاسة والارتياح. ورأيت «الأخرى» تنطوي على ذاتها، وقد أذهلتها المفاجأة.

أنا أيضاً كنت أحبّه. في كل دقيقة، في كلِ ثانية، كان ذلك الحبّ يكبر ويغيّر كياني. كنت قد استعدت ثقتي بنفسي وبالمستقبل. وشيئاً فشيئاً، أستردّ ثقتي وإيماني بالله.

كل ذلك بسبب الحب.

قلت قاطعةً على نفسي عهداً، موصدةً الباب نهائياً دون حشرية «الأخرى»: «لم أعد أريد أن أغرق في ظلماتِ نفسي، فالسقطة من الطبقة الثالثة تحدث من الأضرار ما تحدثه السقطة من الطبقة المئة».

وإذا كان لا بدّ لي أن أسقط، فلأسقط من المكانِ الأعلى.

«لن تغادرا هذه المرّة أيضاً على الريق! قالت لي المالكة.

أجبتها بكثير من الدهشة:

ـ لم أكن أعلم أنك تتكلمين الإسبانية.

ـ الحدود ليست بعيدة. وخلال فصل الصيف يقصد السيّاح «لورد» بأعداد كبيرة. ولو كنت لا أتكلّم الإسبانية لما تمكّنت من تأجير غرف بيتي.

كانت قد أعدّت شطائر من الخبز المحمَّص وقهوة بالحليب. لقد هيّأت نفسي لمواجهة ذاك النهار، فكلُّ ساعة منه من شأنها أن تكون بمنزلة عام بأكمله. وكنت آمل في أن تمنحني فترة الفطور بعض السلوى.

سألت:

ـ كم مضى على زواجكما؟

ـ لقد كان حبّي الأوّل.

ولم أقل المزيد.

أردفت قائلة:

ـ أترين تلك القمم هناك؟ حبّي الأوّل مات على سفح أحدِ تلك الجبال.

ـ ولكنّك أحببتِ أحداً من بعده.

ـ بلى، صحيح. وعشتُ سعيدة. غريب أمر القدر هنا: فلا أحد

تقريباً ممّن عرفتهم، استطاع أن يتزوج من حبّه الأوّل. وكلّ الذين تزوّجوا يرددون دائماً أنهم فقدوا شيئاً بالغ الأهمية، وأنهم ما عاشوا كلّ ما كان ينبغي أن يعيشوه.

وسكتت بغتة.

ــ اعذريني. لم أقصد أن أمسّ شعورك.

ــ لا، لم تفعلي.

ــ غالباً ما أتطلّع إلى تلك البئر، هناك في الخارج. وأقول في سرّي: في السابق لم يكن أحد يعرف أين يوجد الماء، إلى أن جاء يوم صمّم فيه سان سافان على الحفر في ذلك الموضع، وعثر على الماء. ولو لم يفعل في ذلك الوقت، لكانت البلدة قد نشأت في الأسفل، بقرب النهر.

ــ وما صلة ذلك بالحب؟

ــ لقد اجتذبت البئرُ الناس بآمالهم وأحلامهم ونزاعاتهم. أحد ما ارتأى أن يبحث عن الماء، فكشف الماءُ عن وجوده؛ فصار المكان مركز استقطاب للجميع. وأعتقد أننا إذا بحثنا عن الحب بشجاعة، فسوفَ يكشف لنا عن وجوده، وعندئذ نصبح مركز استقطاب لمزيد من الحبّ. وإذا كان هناك من يهتمُّ بأمرنا، فإن الناس جميعاً يهتمون أيضاً. ولكنْ إذا كنا وحيدين، فإننا نزداد عزلة. غريب أمر الحياة هذه.

سألتها:

ــ هل سبق لك أن سمعتِ بكتاب عنوانه I-Ching؟

ــ لا، على الإطلاق.

ــ يقول هذا الكتاب إنّ من الممكن تغيير وجهة مدينة. ولكن من المستحيل تغيير موضع بئر. والعاشقون يتلاقون، ويبرّدون ظمأهم، ويشيّدون منازلهم، ويربّون أولادهم حول البئر. ولكن إذا قرّر أحدهما أن يرحل فالبئر لا تستطيع أن تتبعه. فيبقى الحبّ هناك، مهجوراً، ولكن بالمياه النقية ذاتها.

ـــ أراكِ يا ابنتي تتكلّمين مثل امرأة خبيرة لاقت من العذاب ما لاقته.

ـــ لا. لطالما شعرت بالخوف. لم أحفر البئر يوماً. إني أفعل الآن، ولا أريد أن أنسى المخاطر.

أحسست فجأةً بأن شيئاً ما في جيبي يزعجني. وعندما أدركت ما هو، جَمُد قلبي. فارتشفت ما تبقى من قهوتي بسرعة.

إنه المفتاح. كان المفتاح معي.

سألت:

ـــ هل عاشت في هذه البلدة امرأةٌ تركت كلّ ما ملكته، إثر وفاتها، لبير «تاربه»؟ وهل تعلمين أين يقع منزلها؟

فتحت الباب ودلّتني. كان واحداً من تلك المنازل القروسطية عند الساحة الصغيرة، المطلّة من الجهة الخلفية على الوادي والجبال.

وقالت: «لقد جاء إلى هنا راهبان منذ نحو شهرين، قالت، و...».

رمقتني بنظرات حائرة، وأضافت قائلة بعد تردّد طويل:

«... وكان أحدهما شبيهاً بزوجك».

أجبتها: «كان هو»، وأنا أبتعد، وفي نفسي حبورٌ ما لأني أتحت للطفلة التي تحيا في داخلي أن تطلق العنان لمشاكستها.

وقفتُ أمام البيت حائرةً في أمري. كان الضباب يكتنفُ كلّ شيء، وكان يُخيّل إليّ أنني داخل حلمٍ رمادي تلوحُ فيه أخيلةٌ غريبة تقودنا إلى أمكنةٍ أشدّ غرابة منها.

كانت أصابعي تتحسّس المفتاح بعصبية.

لا بدّ أنه كان من المستحيل، لكثافة ذلك الضباب، رؤية الجبال من خلال النافذة. ولا بدّ أن البيت معتم، لا شمس على ستائره. لا بدّ أن يكون البيت كئيباً، إذا كان، هو، بعيداً مني.

نظرت إلى ساعتي. كانت التاسعة صباحاً. كان ينبغي أن أفعل شيئاً، أيَّ شيء، يعينني على تزجية الوقتِ والانتظار.

الانتظار. إنه الدرس الأوّل الذي تعلّمته عن الحب. النهار يتريث في انقضائه، ويُعدُّ أحدنا آلاف المشاريع، ويتخيّل كلّ المحادثات الممكنة، ويتعهّد لنفسه بان يُغيّر سلوكه، ويلبث حيث هو، قلقاً، شديد القلق، حتى يصل المحبوب.

وعندئذ، يحار ما عساه يقول. فساعات الانتظار تلك تستحيل توتراً، والتوتر يستحيل خوفاً، والخوف يجعله خجولاً من إظهار مشاعره.

تذكرتُ حديثنا ليلة أمس: «لا أدري إذا كان ينبغي أن أدخل». فقد كان ذلك البيت رمز حلم. غير أني، في المقابل، لم أكن أستطيع أن أبقى هناك طوال النهار من دون أن أفعل شيئاً. فاتخذت قراري. سحبت المفتاح من جيبي، وتقدّمت نحو الباب.

تناهى الصوتُ ذو اللكنة الفرنسية الواضحة، من قلب الضباب: «بيلار!». لم أشعر بالخوف لكنني دهشتُ. ربّما كان مالك البيت حيث استأجرنا الغرفة، سوى أنه لا يعرف اسمي.

ناداني الصوت من جديد، وقد اقتربَ قليلاً: «بيلار!» .

كان شخصٌ ما يقترب بخطوات حثيثة. وبدا أن كابوس الضباب، بأخيلته الغريبة، موشك أن يستحيل حقيقة.

صاح الصوت قائلاً: «انتظري... أودّ أن أكلِّمك».

لمّا صار بقربي، علمتُ أنّه راهب. كان شبيهاً بالصورة الشائعة لكاهن الأرياف: قصير القامة، مائل إلى السمنة، وبضع خصلات من الشعر الأشيب تغطي صلعة رأسه.

قالَ باسطاً كفّه لمصافحتي، وابتسامة عريضة على شفتيه: «صباح الخير!».

بادلته التحيَّة بمثلها، مجفلةً.

لاحظ قائلاً وهو يتطلّع إلى المنزل: «مؤسف أن يحجب الضباب كلّ شيء. فسان سافان تقع على سفح جبل، والمنزل يُطل على منظر رائع. عبر نوافذه، يمكن أن نطلّ على الوادي، هناكَ في الأسفل، وعلى القمم المكسوّة بالجليد، هناكَ في الأعلى. ولا بدّ أنك تعلمين ذلك الآن».

على الفور فطنتُ مَن يكون: رئيس الدير.

سألت: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وكيف عرفت اسمي؟».

تغاضى عن السؤال، وسألني بدوره:

ــ أتودّين الدخول؟

ــ لا. أودّ أن تجيب عن سؤالي.

راح يفرك يديه لكي يدفئهما قليلاً، ثمّ جلس على حافة الرصيف. فجلست بقربه. كان الضباب يزداد كثافةً، فبات يحجب

الكنيسة التي لا تبعد منّا أكثر من عشرين متراً. ولم نبقَ قادرين على رؤية شيء إلّا البئر. فتذكّرت ما قالته المرأة.

قلت:

ــ إنها هنا.

ــ مَنْ؟

ــ الإلهة. إنها هذا الضباب الذي يكتنفنا.

قال ضاحكاً:

ــ لقد حدّثك إذاً عن هذا الأمر! ولكنني أفضّل أن اسميها: السيّدة العذراء. جرياً على العادة.

سألت مرّة أخرى:

ــ ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وكيف عرفت اسمي؟

ــ أتيت لأنني أرغب في رؤيتكما. ذلك أن أحد أفراد المجموعة الكاريزمية، أخبرني مساءَ أمسِ أنكما مقيمان في سان سافان، وهي بلدة صغيرة.

ــ لقد ذهب إلى الدير.

تلاشت البسمة عن شفتي الراهن، وهزّ رأسه.

همس قائلاً، كأنّه يحدّث نفسه:

ــ إني آسف.

ــ أنت آسف لأنه ذهب لزيارة الدير؟

ــ لا، إنه ليس في الدير، فأنا قادم للتوّ من هناك.

لبث صامتاً لبعض الوقت. عاودتني الهواجس التي استبدّت بي عند نهوضي من النوم صباحاً: النقود، الترتيبات الواجب اتخاذها، المخابرة الهاتفية، تذكرة العودة. لكنني قد عاهدت نفسي على أمرٍ ويجب أن أفي بعهدي لنفسي.

كان الجالس بقربي أحد رجال الكنيسة. وفي صغري لطالما قيل لي تكراراً، إنه ينبغي أن أطلع الكاهن على كلّ شيء.

قلتُ، لأكسر حاجز الصمت:

ـ إني منهوكة. منذ أقل من أسبوع، كنت أعلم مَنْ أكون وما الذي أريده من الحياة. أمّا الآن، فكأني دخلتُ في دوّامة تتقاذفني من ناحيةٍ إلى أخرى، وليس بيدي حيلة.

ـ قاومي. مهمٌّ جداً أن تقاومي.

أذهلني قوله هذا.

أردف قائلاً، كأنه قرأ في أفكاري:

ـ لا تخافي، . أعلم أن الكنيسة تحتاج إلى رهبان، وأنه سيكون راهباً ممتازاً. لكنّ الثمن الذي سيترتّب عليه جزاء ذلك باهظٌ جداً.

ـ أين هو؟ هل هجرني وعاد إلى إسبانيا؟

ـ إلى إسبانيا؟ وما عساه يفعل في إسبانيا. إن بيته هو الدير الذي لا يبعد سوى بضعة كيلومترات من هنا. لكنه ليس هناك. وأنا أعلم جيّداً أين يمكن أن يكون.

منحتني كلماته هذه بعض الشجاعة والحبور. فعلى الأقل، لم يرحل.

لكنّ البسمة كانت قد اختفت كليّاً عن ثغر الراهب.

أردف قائلاً، قارئاً من جديد في أفكاري ومشاعري: «لا تغتبطي كثيراً، ليته عاد إلى إسبانيا».

نهض وطلب مني أن أرافقه. كانت الرؤية أمامنا لا تتعدّى بضعة أمتار، لكنه سار واثقاً كأنه يعرف طريقه. غادرنا سان سافان عبر الطريق نفسها التي سلكناها، مساء أمس الأوّل (أو أن ذلك حدث منذ سنوات طويلة؟)، وأخبرني خلال سيرنا قصة برناديت.

سألت:

ـ إلى أين؟

ـ نبحث عنه.

أثناء سيرنا، قلتُ له:

ـ يا أبتي، هناك أمر لا أفهمه جيداً: لقد بدوت لي حزيناً حين قلت لك إنّه ليس هنا.

ـ ما مقدار معرفتك لحياة الرهبنة، يا ابنتي؟

ـ القليل القليل. إن الرهبان ينذرون الفقر والعفّة والطاعة.

لم أدرِ إذا كان ينبغي أن أتابع حديثي أم لا، لكني قررت أن أتابع:

«وإنهم يحاسبون الآخرين على خطاياهم، في حين أنهم يقترفون مثلها. وإنهم يزعمون لأنفسهم العلم بكل شيء حول الزواج والحب، لكنّهم لم يتزوجوا قط. وإنهم يتوعدوننا بنار جهنّم لآثام لا يتورعون، هم، عن ارتكابها. وإنهم يصوّرون لنا الله بوصفه طالب ثأرٍ يحمّل الإنسان تبعة موت ابنه الوحيد».

ضحك، وقال:

«لقد تلقيتِ تربية كاثوليكية ممتازة. غير أني لم أسألك عن الكاثوليكية. كنت أسألك عمّا تعرفينه عن الحياة الروحية».

لبثتُ حائرةً.

قلتُ أخيراً:

ــ لا أدري بالضبط، إنهم أناس يتخلّون عن كلّ شيء، وينصرفون إلى البحث عن الله.

ــ وهل يجدونه؟

ــ أنت تعرف الجواب. أمّا أنا فليس لديّ أدنى فكرة بهذا الشأن.

لاحظ لهاثي المتسارع، فابطأ من سيره قليلاً.

أردف قائلاً:

ــ إن تعريفك ليس صحيحاً. فالسعي بحثاً عن الله مضيعة

للوقت. فقد يسلك الشاعي كثيراً من الدروب، وقد يتعرّف إلى أديان وشِيَعٍ كثيرة. لكنّه، بما يفعل، لن يلاقي اللهَ قط. فالله موجود هنا، الآن، بجوارنا. بإمكاننا أن نراه في هذا الضباب، في هذه التربة، في هذه الملابس، ملائكته تسهر على نومنا، وتعيننا في كدّنا. لكي نلتقي الله، يكفي أن نبصر من حولنا. غير أن هذا اللقاء ليس بالأمر اليسير، فكلّما أشركنا اللهُ في سرّه، ازداد شعورنا بأننا ضللنا الطريق. ذلك أنّه يطلب منا على الدوام أن نتبع أحلامنا وقلوبنا. وهذا أمر عسير، لأننا تعوّدنا أن نحيا بطريقة مختلفة. وإذ ذاك نكتشف، بكثير من الدهشة، أنّه يريد أن يرانا سعداء لأنه أب.

أضفت قائلة:

ـــ وأم.

كان الضباب قد بدأ يتلاشى، وصار بإمكاني أن أرى منزلاً فلّاحياً صغيراً وامرأةً أمامه تجمع حطباً.

ـــ وأمّ، بلى. فمَن أراد أن يحيا حياة روحية ليس مُرغماً على دخولِ الدير، وعلى الصوم ونذر العفّة والتقشّف. وبناءً يُصبح كلٌّ منا طريقه هو، وفي لدنه معجزاته هو.

قاطعته، قائلة:

ـــ لقد حدّثني عنك. وعلّمني هذه الأمور.

ـــ «أملي أن تتقبّلي الهبات التي يمتلكها. لأن مثلَ هذا غير معتاد. هكذا يعلمنا التاريخ. في مصر، أوزيريس مُقطّع الأوصال. وآلهة الإغريق تتنازع فيما بينها بسبب الفانين. والأزتيك يطردون كويتزالكولت. وآلهة الفايكنغ تشهد حريق والهالا بسبب امرأة. ويسوع يُصلب. لِمَ كل هذا؟»

لم تكن الإجابة بمستطاعي.

«لأن الله يأتي إلى الأرض لكي يظهر لنا قدرتنا. نحن جزءٌ من

حلمه، وهو يريد أن يكون هذا الحلم سعيداً. ومع ذلك، إذا كنّا نعترف، في أعماقِ ذواتنا، أن الله قد خلقنا للسعادة، فالأحرى أن نقرّ بأنّ كلّ ما يدفعنا إلى الحزن والهزيمة هو صنعةُ أيدينا. ولهذا السبب، نتوصّل دائماً إلى قتل الإله. على الصليب، أو بالنار، أو في المنفى، أو حتى في قلوبنا.

ــ ولكن أولئك الذين يدركون...

ــ أولئك يغيّرون العالم، مقابل تضحيات جسام.

عندما لمحت المرأة، التي تنكّبت حمل الحطب، الراهبَ، هرعت إلينا.

صاحت قائلةً وهي تقبّل يديه:

ــ شكراً، يا أبتي! لقد شفى الشابُ زوجي.

أجابها قائلاً، وقد حثَّ خطاه:

ــ القديسة العذراء التي شفته، هو لم يكن سوى أداة.

ــ لا، إنه هو، إنه هو! تفضّلا، ادخلا، أرجوكما أن تدخلا.

على الفور، تذكّرت الليلة الماضية. فلمّا وصلنا إلى الكاتدرائية، قال لي أحدهم: «أنت برفقة رجل يجترح المعجزات!»

أجاب الأب رافضاً دعوتها:

ــ إننا في عَجَلةٍ من أمرنا.

قلت بالفرنسيّة، منزعجة لاضطراري إلى التكلّم بلغةٍ غير لغتي: «لا، على الإطلاق. إني أشعر بالبرد، وأودُّ حقاً أن أرتشف فنجان قهوة».

أمسكت المرأة بيدي ودخلنا. كان البيت مريحاً، لكنه خالٍ من أي علامة بذخ: حيطان من الحجارة وسقف من الخشب. وكان رَجُلٌ ستيني يجلس أمام نيران مدفأة.

ما إن لمح الأب حتّى سارع إلى النهوض بغية تقبيل يده.

قال الراهب:

ـــ ابقَ مستريحاً، فانت لم تتعافَ تماماً بعد.

ـــ لقد استرذيت كيلوغرامين من وزني. لكني ما زلت لا استطيع أن أعين زوجتي في العمل.

ـــ لا تقلق. كلّها أيام قليلة وتصبح أفضل مما كنت.

ـــ أين ذاك الفتى؟

أجابت المرأة:

ـــ لقد رأيته سالكاً الاتجاه الذي يسلكه عادةً، لكنه اليوم كان يستقلّ سيّارة.

رمقني الأبُ من دون أن ينطق بكلمة.

قالت المرأة:

ـــ امنحنا بركتك، يا أبتي. ان تلك القدرة التي يمتلكها....

قاطعها قائلاً:

ـــ قدرة السيّدة العذراء.

ـــ ... السيّدة العذراء، بلى، تلك القدرة هي قدرتك أنت أيضاً. فانت من جاء به إلى هنا.

هذه المرّة حاول اجتناب نظرتي إليه. لكنّ المرأة ألحّت بطلبها:

ـــ بارك زوجي يا أبتي، صلّ من أجله.

تنشّق ملء رئتيه. وقال مخاطباً الرجل:

ـــ انهض وقف أمامي.

فانصاع الرجل. أغمض الراهب عينيه، وتلا السلام الملائكي. ثم تضرّع للروح القدس طالباً منه أن يتجسّد ليكون في عون هذا الرجل.

فجاة، تسارعت ألفاظه، وما عدتُ قادرة على تتبّع أقواله، غير أنها بدت لي كأنّها صلاة تعزيم. كانت يداه تلمسان كتفي

العجوز، ثمّ ينزلهما على طول الساعدين حتى أصابع يديه. وكرّر ما فعله مراراً.

في الموقد راحت النار تستعر محدثة فرقعة. ربّما كانت مصادفة، وربّما كان ذلك بسبب ما فعله الراهب، من يدري؟ كنت قد توغّلت في نطاق أجهله، حيث يسود التداخل بين العناصر.

كنّا، أنا والمرأة، نجفل كلّما فرقعت حطبة مشتعلة. أمّا الأب فما كان يولي الأمر انتباهاً لاستغراقه في ما يفعل، أداةً لقدرة العذراء، كما قال هو منذ قليل. كان يستخدم لغة يستحيل فهمها، إذ تلفّظ كلماتها بسرعة بالغة. وفي الأثناء، كانت يداه قد أرخيتا مجدّداً على كتفي الرجل الذي لبث واقفاً أمامه.

فجأةً، انتهى الطقس، كما بدأ، على نحو مباغت. استدار الراهب، ورسم الشارات المعتادة للمباركة، راسماً بيده اليمنى شارةَ الصليب على نحوٍ منظور.

قال:

ـــ ليحلّ الربُّ دائماً في هذا البيت!

ثمّ التفت إليّ وطلب مني أن نتابع طريقنا.

قالت المرأة إذ رأت أننا نهم بالمغادرة:

ـــ والقهوة؟

أجابها قائلاً:

ـــ إن ارتشفت القهوة الآن، فلن أتمكّن من النوم لاحقاً.

ضحكت وغمغمت عبارات من قبيل: «لكننا ما زلنا في ساعات الصباح!». كنا قد تابعنا سيرنا، فلم أسمع جيداً.

ـــ لقد تحدّثت تلك المرأة عن شاب شفى زوجها، يا أبتي. لقد كان هو، أليس كذلك؟

ـــ أجل، كان هو.

بدأت أشعر بشيء من الضيق. كنت أذكر جيداً نهار أمس،

وبيلباو والمحاضرة في مدريد، والناس الذين راحوا يتحدثون عن المعجزات، والحضرة التي شعرت بوجودها وأنا أصلّي، وقد شبكت ذراعي أذرع الآخرين.

كنت أحبّ رجلاً قادراً على شفاء الآخرين، رجلاً قادراً على إعانة قريبه، وبلسمة عذاب الآخرين، وإعادة الصحة إلى المرضى، والرجاء لأهلهم. وتلك مهمّة لا تتلاءم مع بيت بستائر بيض.

ـ لا تحمّلي نفسك ذنب ما حصل، يا ابنتي.

ـ أنت تقرأ في أفكاري.

ـ هذا صحيح. أمتلكُ هبةً، أنا أيضاً، وأسعى لأن أكون مستحقّها. لقد علّمتني السيدة العذراء أن أغوص في دوّامة المشاعر البشرية، لكي أتمكّن من توجيهها على أفضل نحوٍ ممكن.

ـ أنت أيضاً تجترح المعجزات.

ـ لست قادراً على الشفاء. لكني أمتلك إحدى هبات الروح القدس.

ـ هكذا تستطيع أن تحزر ما في قلبي. ولا بدّ أنك تعلم أني أحبّه، وأن هذا الحبّ لا ينفي يكبر. لقد اكتشفنا العالم معاً، ومعاً سنبقى فيه. لقد كان حاضراً في كل يوم من أيام حياتي، أشئنا ذلك أم أبينا.

ماذا كنتُ أستطيع أن أقول لخادم الكنيسة، ذلك الذي كان يسير بجنبي؟ فكيف له أن يفهم أنني عرفتُ رجالاً آخرين، وأنني أحببتُ، وأنني لو كنتُ تزوّجت لعشتُ سعيدة. كنت طفلة عندما اكتشفت الحبّ وفقدته في ساحة صوريا. ولكنّ الظاهر أنني لم أحسن صنيعَ أي شيء. فثلاثة أيام كانت كافية لكي يُستعاد كلّ شيء.

«لي الحقّ، يا أبتي، بأن أكون سعيدة. لقد استعدت ما فقدته، ولا أريد أن أفقده من جديد. سوف أقاتل في سبيل سعادتي. فإن

تخلّيت عن هذه المعركة، فإنني أتخلّى أيضاً عن حياتي الروحية. وأنت تقول أن ذلك يكون من قبيل التنكّر للربّ، ولقدرتي وقوّتي كامرأة. سوف أقاتل في سبيل الاحتفاظ به».

كنت أعلم ما الذي أتى بهذا الرجل السمين الساذج. لقد جاء لإقناعي بالتخلّي عنه لأنّ لديه مهمّة أسمى ليضطلع بها.

لا، لم أكن قطّ مهيّأةً لأن أصدّق أن هذا الكاهن، الذي يسير بقربي، قد يحبّذ أن يرانا، كزوجين مقيمين في منزلٍ، مثل ذاك المنزل في سان سافان. لكنّه يبدي ما يبديه لكي يخدعني، لكي أطمئنّ إليه وأنسى حذري، وإذ ذاك، بابتسامة، يقنعني بعكسِ كلّ هذا.

لقد قرأ في أفكاري من دون أن ينبس بكلمة. ربّما كان يخدعني، وليست لديه القدرة على القراءة في أفكار الناس؟ كان الضباب يتلاشى بسرعة، وصار بمقدوري أن أتبيّن الدرب وسفح الجبل والحقول والاشجار المكسوة بالثلوج. حتى انفعالاتي صارت أقلّ اضطراباً.

فليكن! إذا كان هذا الكاهن قادراً حقاً على القراءة في أفكار الناس، فليقرأ، وليعلم كل شيء! فليعلم أنّه أمس أراد أن يضاجعني وأنني رفضت، وأنني الآن نادمة على رفضي ذاك.

أمسِ كنت أحسب أنه، إذا كان ينبغي أن يرحل، فسأبقى دائماً أذكر فيه صديق الطفولة. وكنت شديدة الغباء. فحتّى لو لم يلجني عُضوه، فإن شيئاً أعمق قد ولجني، ومسّ قلبي.

ردّدت قائلة:

ـــ أحبّه يا أبتي.

ـــ وأنا أيضاً أحبّه. فالحبّ دائماً يرتكب الحماقات. ففي حالتي أنا، إنه يرغمني على السعي لإبعاده عن قدره.

ـــ سوف تجد مشقّة في سعيك لإبعادي، يا أبتي. أمسِ، خلال

الصلوات أمام المغارة، اكتشفت أنني قادرة، أنا أيضاً، على إيقاظ تلك الهبات التي أشرت إليها. وسوف أستخدمها لكي أبقيه بقربي.

قال في ما يشبه الختام، وقد علتِ الابتسامة شفتيه: «ليكن! وليكن النجاح حليفك».

ثمّ توقف وأخرج سبحة من جيبه. أمسكها بين أصابعه، وحدّق إلى عينيّ مباشرةً.

«قال يسوع إنَّ الحَلْفَ لا يجوز، ولن أحلف. لكني أقول لكِ، في هذه اللحظة، وفي حضرة ما أقدّسه، إني لا أتمنّى أن يعيش حياة رهبنة تقليدية. ولا أتمنى أن يُسامَ كاهناً. بإمكانه أن يخدم الربّ بطرقٍ أخرى. بقربك».

كان شاقاً عليَّ أن أصدّق أن ما يقوله هو الحقيقة. لكنَّها كانت الحقيقة.

قال الأب: «إنه هناك».

التفتُّ، فلمحت سيارةً مركونة على مسافة منّا. وكانت السيّارة التي جئنا بها من إسبانيا.

قال الراهب مبتسماً: «في العادة، كان يأتي إلى هنا سيراً على الأقدام، ولكنه أراد، هذه المرّة، أن يحثنا على الاعتقاد بأنَّه قام برحلة طويلة».

كان سيرنا على الثلج قد رطّب حذائي الخفيف. لكن الراهب كان ينتعلُ صندلاً مفتوحاً وجاربين من الصوف، ففضّلتُ أن أكتم شكواي. فإذا كان هو قادراً على التحمُّل، فلا بدّ أن أكون، أنا أيضاً، قادرة على ذلك. وبدأنا نتسلّق باتجاه القمة.

ــ أما زال المكان بعيداً؟

ــ نصف ساعة من السير على الأكثر.

ــ إلى أين نحن ذاهبون؟

ــ للقائه. ولقاء آخرين معه.

شعرتُ بأنّه لا يريد أن يقول المزيد. ربّما لكي يقتصد طاقته خلال تسلّقنا الشاق هذا. مشينا بصمت. كان الضباب قد انقشع تقريباً، ولاح قرصُ الشمس الأصفر واهناً في البعيد.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يتاح لي فيها أن أطلّ على المنظر الشامل للوادي، وأرى نهراً يجري في القعر، وبضع ضياع شبه محتجبة، وسان سافان المعلّقة عند سفح الجبل. ميّزتُ على الفور برج الكنيسة، ومقبرة لم أرها من قبل، والبيوت القروسطية المطلّة على مجرى ماء.

في الأسفلِ، عند موضعٍ كنا اجتزناه للتو، راعٍ يسوق قطيعه عبر الشّعاب.

قال الراهب: «لقد تعبت، لنتوقف لاستراحة قصيرة».

أزحنا الثلج المتراكم فوق صخرة، وأسندنا ظهرينا إليها. كان الراهب يتصبَّب عرقاً، ولا بدّ أن قدميه قد تجمّدتا من الصقيع.

قال ملتفتاً نحوي: «ليحفظ القديس يعقوب قواي، لأنني أودّ أن أسلك دربه مرَّة ثانية».

لم أفهم مغزى قوله هذا، لكنّي فضّلت أن أغيّر الموضوع.

قلت:

ــ هناك آثار أقدام على الثلج.

ــ إنها آثار أقدام صيّادين، على الأقل، بعضها. أما بعضها الآخر فآثار أقدام رجال ونساء يريدون الحفاظَ على تقليد.

ــ أي تقليد؟

ــ هو نفسه تقليد سان سافان. الزُّهد بالعالم، والمجيء إلى هذه الجبال والتأمُّل في جلال الربّ.

ــ يا أبتي، يجب أن أفهم شيئاً من كل هذا. حتى أمس، كنت برفقة رجلٍ حائرٍ بين حياة الرهبنة والزواج. واليوم أكتشف أن هذا الرجل يجترح المعجزات.

ــ كلنا نجترح المعجزات. لقد قال يسوع: لو كان لنا من الإيمانِ قَدْرُ حبَّةِ خردل لقلنا لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هنالك، فينتقل.

ــ ليس درساً في مبادئ الدين ما أريد أن أسمعه، يا أبتي. إني أحبّ رجلاً وأريد أن أعرف المزيد بشأنه، أريد أن أفهمه، أن أساعده. ولا شأن لي بما يستطيعه الآخرون أو لا يستطيعونه.

شهق ملء رئتيه. لبث لهنيهة متردّداً، لكنّه سرعان ما أردف قائلاً:

«كان أحد العلماء يدرس سلوك القرود في إحدى الجزر الأندونيسية، وقد توصّل إلى تلقين قردٍ كيف يغسل البطاطا في مياه النهر قبل أن يأكلها. فحبَّة البطاطا المغسولة من الرمل

والقاذورات العالقة بها تصبح شهية الطعم. ولم يكن هذا العالِم، الذي يكتب دراسة حول قدرات التعلُّم لدى هذه الطائفة من القرود، ليتخيل، للحظةٍ، ما سوف يحصل لاحقاً. فكم كانت دهشته عظيمة عندما لاحظ أنَّ قروداً أخرى في الجزيرة راحت تقلّد القرد المذكور. وحين جاء اليوم، الذي تعلّمت فيه كل قرود الجزيرة غسل البطاطا، شرعت كل قرود جزر الأرخبيل تحذو حذوها. ولكن ما يدعو إلى دهشةٍ أكبر هو أنَّ القرود الأخرى تعلّمت من دون أن تقيم أية صلةٍ بالجزيرة التي أُجري فيها الاختبار. أفهمتِ؟».

ـ لا.

ـ هناك دراسات علمية عديدة ومتنوّعة حول هذا الموضوع. لكنّ التفسير، الأكثر شيوعاً، يقول إنّه عندما يتطوّر عدد معيّن من الأفراد، فإنّ النوع بأسره يتطوّر في النهاية. ما زلنا نجهل كم هو عدد الأفراد المطلوب، لكننا نعلم أن الأمور تجري على هذا النحو.

ـ إنها مثل قصة الحَبَل بلا دنس. لقد ظهرت، في الوقت عينه، لحكماء الفاتيكان وللفلّاحة الجاهلة.

ـ العالم له روح، وقد يأتي أوان تؤثّر فيه هذه الروح في كلّ شيء وفي الجميع.

ـ روح أنثوية.

ضحك، لكنه لم يوضح لي ماذا عَنَت تلك الضحكة.

وتابع قائلاً:

ـ ما حصل أن عقيدة الحبل بلا دنس ليست فقط قضية تخصّ الفاتيكان. هناك ثمانية ملايين شخص وقّعوا عريضة موجّهة إلى البابا. وجاءت التواقيع من سائر أنحاء العالم. فقد كان الأمر شائعاً ينتقل عبر الهواء.

ـــ أتكون تلك هي الخطوة الأولى، يا أبتي؟

ـــ خطوة أولى من أي شيء؟

ـــ من المسار الذي سيؤدي إلى اعتبار السيِّدة العذراء تجسيداً للوجهِ الأنثوي من الربّ. فقد سبق أن اعترفنا، بأية حال، بأن يسوع يجسّد الوجه الذكوري منه.

ـــ ماذا تقصدين؟

ـــ كم من الوقت سوف يمرّ قبل أن نقرَّ بثالوث مقدّس تكون المرأة جزءاً منه؟ ثالوث مقدّس ممثل بالروح القدس والأم والإبن؟

ـــ هيّا، لنتابع سيرنا. سوف نجمد من البرد إن لم نتحرك.

قال: «منذ قليل، لاحظتِ أنني أنتعل صندلاً».

ــ هل تقرأ في الأفكار حقاً؟

لم يُجب.

«سوف أحكي لك طرفاً من القصة. ذاك المتعلّق بنشأة رهبنتنا. نحن مَن تُطلق عليهم تسميةُ الكرمليين الحُفَاة، بحسبِ القواعد التي وضعتها القديسة تريز دافيلا. والصنْدَل جزء من القاعدة، فالقدرة على زمِّ الجسد تعني القدرة على زمِّ النفس.

«لقد كانت تيريز فتاة جميلة، جاء بها والدها إلى الدير لكي تتلقّى فيه تربية رفيعة. ذات يوم، فيما كانت تجتاز أحد الأروقة، بدأت تكلّم يسوع. وكانت لحظات وَجْدها من القوّة والعمقِ بحيث إنها انصرفت إليها بكلّيتها، ولم يمضِ وقت طويل حتّى غيّر ذلك حياتها كليّاً. وإذ رأت أنَّ الأديرة الكرملية قد صارت حقاً أشبه بوكالاتٍ للزواج، صمّمت على إنشاء رهبنة تتبع بدقّة التعاليم الأصلية للمسيح والكرمل.

«كان على القديسة تيريز أن تتغلّب على نفسها، وأن تجبه مركزي النفوذ في عصرها: الكنيسة والدولة. وبرغم كل شيء، فإنها لم تتردّد في المضيّ قُدُماً، لاقتناعها بأن عليها أن تنجز رسالتها. ذات اليوم، في الفترة التي وَهَنت فيها روحها، طرقت امرأة بملابسَ رثة باب المنزل الذي كانت تقيم فيه، وألحّت على مقابلة الأم

الرئيسة. عرض عليها مدبّر المنزل خشنة، فرفضتها. وأبلغته بأنها لن تغادر قبل التحدُّث إلى تيريز.

«لثلاثة أيام انتظرت أمام الباب بلا طعام أو شراب. فاشفقت الأمّ الرئيسة على حالها، وطلبت أن يُدخلوها.

«قال مدبّر المنزل:

« ــ لا. إنها مجنونة.

«أجابت الأم الرئيسة:

« ــ لو أني أصغيت للجميع لكنتُ أصبحت، أنا نفسي، مجنونة. وقد تكون هذه المرأة مصابة بنفس الجنون الذي أصبت به: جنون المسيح على الصليب».

قلت:

ــ كانت القديسة تيريز تكلِّم المسيح.

ــ أجل، ولكن لِنَعُد إلى قصّتنا:

«استقبلت الأم الرئيسة إذاً تلك المرأة، وقالت إنها تدعى ماريا دو خيسوس يبيس، من غرناطة. وكانت تلميذة رهبنة، عندما ظهرت لها العذراء، لتطلب منها تأسيس دير، وفق القواعد البدائية للرهبنة».

قلت في سرّي: «مثل القديسة تيريز».

وتابع هو:

«غادرت ماريا دوخيسوس الدير في اليوم ذاته، وقصدت روما، حافية القدمين. استغرقت رحلتها سنتين نامت خلالها في العراء، وكابدت البرد والحرّ، واعتاشت من الصّدَقاتِ وحسنات الآخرين. وكان بلوغها روما معجزة. لكنّ المعجزة الأكبر تمثّلت في استقبال البابا بيوس الرابع لها».

خلصت إلى القول في سرّي: «لأن البابا، والقديسة تيريز وآخرين كُثراً كانوا يفكّرون في الأمر نفسه».

فكما أن برناديت كانت تجهل قرار الفاتيكان، كذلك القرود لم يكن بإمكانها أن تعرف شيئاً عن الاختبار الذي كان يجري، كذلك ماريا دو خيسوس وتبريز كانت إحداهما تجهل ما يدور في ذهن الأخرى.

كنتُ قد بدأتُ أدرك شيئاً من مغزى كلّ هذا.

كنّا قد أصبحنا نسيرُ وسط غيضة. وكانت أغصان الأشجار العالية، العارية من الأوراق، تستقبل أولى شعاعات الشمس، فيما الضبابُ ينقشع كليّاً.

ـــ إني أدرك مغزى كلامك يا أبتي.

ـــ بلى. العالم يشهد حقبةً يتلقّى فيها كثيرٌ من الناسِ الإيعاز نفسه. اتبعوا أحلامكم. اجعلوا حياتكم درباً مفضياً إلى الربّ. اجترحوا معجزاتكم. أشفوا. تنبّأوا. أصغوا إلى ملاككم الحارس. كونوا محاربين، وكونوا سعداء في معرككتكم.

ـــ خوضوا مجازفاتكم.

كانت الشمس قد غمرت بوهجها كلّ شيء. كان الثلجُ يلمعُ والضياءُ الباهر يؤذي عينيّ. غير أنّ سطوعها هذا كان، في الوقت نفسه، كأنه تتمّة لكلام الراهب.

ـــ وما صلة ذلك به؟

ـــ لقد أظهرت لك الجانب البطولي من القصّة. لكنّك لا تعلمين شيئاً عن روح أبطالها.

وصمت لوقت طويل.

ثم تابع قائلاً:

ـــ إن العذاب، في فترات التحوّل، يظهر الشهداء. فقبل أن يتاح للناس اتّباع أحلامهم، ينبغي لآخرين أن يضحّوا بأنفسهم. ويكون

عليهم أن يجبهوا الهزء والاضطهاد، وكلَّ ما يحطُّ من قَدْر أعمالهم.

ـــ إن الكنيسة هي التي أحرقت الساحرات، يا أبتي.

ـــ أجل. وربما رمت بالمسيحيين في جحر الأُسود. فمن ماتوا على المحرقة أو ساحة الأسود، سرعان ما حظوا بالمجدِ الأبدي، وكان ذاك لخيرهم. ولكنْ، في أيّامنا هذه، يجبه محاربو الضوء أمراً أفظع من الموت المتوّج بشرف الشهادة. إنهم يُستنفدون شيئاً فشيئاً بالعارِ والمذلّة. وتلك كانت حال أبناء فاطمة ذوي البهجة: هاشنتا وفرنشيسكو ماتا في غضون بضعة أشهر، ولوتشيا عزلت نفسها في دير لم تخرج منه قط.

ـــ ولكنْ تلك لم تكن حال برناديت.

ـــ بلى. فقد كان عليها أن تكابد السجن والإذلال والشَّيْن. لا بدَّ أن يكون قد حكى لك. ولا بدّ أن يكون قد حدّثك عن العبارات التي نطقت بها الرؤية.

ـــ بعضها فقط.

ـــ خلال رؤى «لورد»، نطقت السيّدة العذراء بعبارات قد تملأ، إذا دوِّنت، نصف صفحة دفتر. ومع ذلك، فإن القديسة العذراء قد حرصت على مخاطبة الراعية الصغيرة قائلة: «إني لا أعدكِ بالغبطةِ في هذا العالم». فَلِمَ كانت إحدى العبارات القليلة جداً، التي تلفَّظت بها، عبارة تحذير ومؤاساة لبرناديت؟ لأنها كانت تدرك المشقّات التي ستكابدها الطفلة إذا تقبّلت رسالتها.

كنتُ أجيلُ بصري بين الشمس والثلج والأشجار العارية.

تابع قائلاً، وقد شابت صوته نبرة خشوع: «أما هو، فثوري. إنه يمتلك قدرة، ويكلِّم السيّدة العذراء. وإذا تمكّن من تركيز طاقته، فبإمكانه أن يجد محلَّه في الطليعة، أن يكون أحد مرشدي التحوّل الروحي للجنس البشري. فالعالم يحيا إحدى لحظاته الأكثر مصيرية.

«على الرغم من ذلك، وإذا كان ذاك خياره، فإنه سوف يكابد الكثير من العذاب. إن لحظات وحيه تأتي قبل الأوان. ولي ما يكفي من العلمِ بالنفس البشرية لكي أدركَ ما ينتظره».

استدار الراهب نحوي وأمسك بكتفي. وأردف قائلاً:

«أرجوكِ، أبعديه عن العذاب والمأساة اللذين يتربّصان به. فلن يقوى على الصمود في وجههما».

ــ إني أدرك مقدار الحبّ الذي تكنّه له، يا أبتي.

أشار برأسه نفياً:

ــ لا. أنت لا تدركين شيئاً. ما زلتِ طريّة العود، وما خبرتِ بَغْدُ أذية العالم. في هذه اللحظة ترين في ذات نفسك أنك، أنت أيضاً، امرأة ثورية. تريدين تغيير العالم إلى جانبه، وتمهيد السُبُل، تريدين أن تتحوّل قصة حبكما إلى أمرٍ أسطوري. وما زلت تؤمنين بأن الحبّ قد ينتصر.

ــ وهل إنّه لا ينتصر؟

ــ بلى، بالتأكيد. لكنَّه سينتصر في أوانه. بعد انتهاء المعارك السماوية.

ــ إني أحبّه. ولست مجبرة على انتظار نهاية المعارك السماوية لكي أدع حبّي ينتصر.

ناءث به نظراته.

قال كأنَّه يخاطب نفسه:

ــ على أنهار بابلَ هناكَ جلسنا فبكينا، على الصفصافِ في وَسَطها علّقنا كِنَّاراتِنا.

أجبت قائلةً:

ــ كم حزين هو هذا الكلام.

ــ إنه مطلع أحد المزامير. يحكي عن المنفى، عن أولئك الذين

يوذون الرجوع إلى أرض الميعاد، ولا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً.
وسوف يتواصل هذا المنفى لبعض الوقت. فما عساني بفاعلٍ لكي أصدَّ العذابَ عمَّن يرغب في الرجوعِ إلى الفردوس قبل الأوان؟

ــ لا شيء يا أبتي. لا شيء على الإطلاق.

قال الراهب: «ها هو ذا».

رأيته. كان جاثياً فوق الثلج على بعد مئتي مترٍ تقريباً، عاريَ الجِذع، وأمكنني، حتى من بعيد، أن ألحظَ بشرته الضاربة إلى الزرقةِ من شدّةِ البرد.

كان مَحنيَّ الرأس، مضموم اليدين، في هيئةِ الغارق في صلواته. ولا أدري إذا كنت لم أزل، عندها، تحت تأثير الطقس الذي شهدته في الليلة السابقة، أو تحت تأثير المرأة التي شاهدتها وهي تجمع الحطب أمام منزلها الوضيع. غير أني كنت أشعر بأني أتطلّع إلى شخصٍ قد حُبيَ بقوّة روحية غير اعتيادية. شخص ما عاد ينتمي إلى هذا العالم، يحيا في حال اتّحاد مع الله، ومع الأرواح المنيرة في ملكوت السماوات. وكان سطوع الثلج من حوله يعزّز لديَّ مثل هذا الانطباع.

قال الراهب: «على هذا الجبل، يوجد آخرون أيضاً ممّن يتّصلون، في حالٍ من التعبُّد الدائم، بتجربة الربّ والسيّدة العذراء، ممَّن يصغون إلى الملائكة والقديسين والنبوءات وكلام الحكمة، ويُبلّغون ذلك كله إلى مجموعة صغيرة من المؤمنين. فإن بقي الأمر على ما هو عليه الآن، فلن تكون هناك مشكلة.

«لكنّه لن يبقى هنا. سوف يجوب أنحاء العالم مبشّراً بفكرة الأمّ العظمى. والكنيسة، في الوقت الحاضر، لن تعترف بهذا الكلام.

والعالم مسلّح باحجار سوف يرجم بها كلٌّ من يبادر إلى التطرق إلى هذا الموضوع.

ــ وبورود يرمي بها من سياتي من بعدهم.

ــ أجل. لكن هو ليس في عداد من سياتون فيما بعد.

عندئذ راح يتقدّم باتجاهه.

سالت:

ــ إلى أين أنت ذاهب؟

ــ لأوقظه من وَجْده. لأقول له إني أُعجبت بك. وإني أبارك رباطكما. أريد أن أفعلَ ذلك هنا بالذات، في هذا المكان المقدَّس في اعتقاده.

شعرتُ بعوارض غثيان، كما يشعر الخائفُ، ولم أدرك سبباً لذلك:

ــ يجب أن أفكُر في الأمر، يا أبتي. فلا أدري إذا كان ما ستقدم عليه هو الصواب.

ــ لا، ليس كذلك. هناك آباء كُثُر يخطئون بشان أبنائهم، لأنهم يعتقدون أنهم يعرفون ما الأفضل لهم. لستُ أباكِ وأعلم أني بذلك لا أُقدمُ على الصواب. ولكن ينبغي أن أُتمّم قدري.

كنتُ أزداد شعوراً بالحَصْر. وقلت:

ــ دَعْنا لا نقطع عليه تامّله. دعه يُكمل صلاته.

ــ ليس من المفترض أن يكون هنا. المفترض أن يكون معك.

ــ ربَّما هو مستغرقٌ في التحدُّث إلى العذراء.

ــ إنه أمر محتمل. ولكن، برغم كل شيء، ينبغي أن نذهب إليه. وحالما يرى أنني برفقتك، فسيعلم أني حكيت لك كلّ شيء. وسيدرك حقيقة رأيي بهذا الشان.

قلتُ بإلحاح:

ـ اليوم عيد الحبل بلا دنس، إنه يوم استثنائي بنظره. فمساء أمس، رأيت، أمام المغارة، مقدار بهجته.

ـ عيد الحبل بلا دنس مهمٌّ لنا جميعاً. والآن، أصبحت أنا الذي لا يرغب في الحديث عن أمور دينية؛ فلنذهب إليه.

ـ لِمَ الآن يا أبتي؟ لِمَ في هذه اللحظة بالذات؟

ـ لأنَّه منصرفٌ، الآن، إلى اتخاذ قرار بشأن مستقبله. ومن المحتمل أن يختار الطريق الخطأ.

استدرت في الاتجاه المعاكس، وعدت أدراجي هبوطاً عبر الدرب الذي كنا سلكناه لتوّنا. تبعني:

«ماذا تفعلين؟ ألا ترين أنك الوحيدة القادرة على إنقاذه؟ ألا ترين أنه يُحبّك، وأنّه سيتخلى عن أي شيء لأجلك؟».

كنت أسرّع مشيتي، فيبذل مجهوداً مضاعفاً ليلحق بي.

«إنه يسعى، في هذه اللحظة بالذات، إلى اتّخاذ قراره. ربّما اختار أن يهجرك. قاتلي في سبيل من تحبّين!».

غير أني لم أتوقّف. تابعت سيري بما أمكنني من السرعة، مخلّفةً ورائي الجبل والراهب والاختيار. وكان الرَّجلُ المهرولُ ورائي يقرأ في أفكاري، كنت موقنةً بذلك. ويعلم أنّ كلَّ محاولة، لإعادتي إلى حيث كنا، هي من قبيل العبث. ومع ذلك، كان يلحّ، ويبزّر ويبذل ما بوسعه حتى النهاية.

أخيراً، بلغنا تلك الصخرة التي كنا قد توقفنا عندها قبلَ نصفِ ساعة. لاهثةً، تهالكت على الأرض. كنت عاجزةً عن التفكير. أودّ أن ألوذ بالفرار، أن أبقى وحدي، أن يكون لديّ متّسع من الوقت للتفكير.

انضمّ إليّ الراهب بعد ذلك ببضع دقائق، كان منهوكاً هو أيضاً، جزاء ذلك السير المتسارع.

«أترين هذه الجبال التي تحوطنا؟ إنها لا تصلي، لأنها ابتهال الربّ.

وهي كذلك لأنها وجدت مكانها في هذا العالم، وفي مكانها تبقى. كانت فيه حتّى قبل أن يتطلّع الإنسان إلى السماء، وقبل أن يسمع الرعد، ويتساءل عن خالقِ كل هذا. إننا نولد ونتألّم ونموت، والجبال ها هنا، ولطالما كانت هنا. تمرّ بنا أوقات نشعر فيها بالحاجة إلى السؤال عمّا إذا كان الأمر يستحق كلّ ما نبذله من جهود. لِمَ لا نحاول أن نكون مثل هذه الجبال الحكيمة، المسنّة، المنتصبة، حيث ينبغي أن تكون؟ لِمَ المجازفة بكل شيء تلقاء تغيير حفنةٍ من الناس، سُرعان ما سوف ينسون ما لُقّنوه، فيسعونَ وراء مغامرة جديدة؟ لِمَ لا ننتظر ريثما يتعلّم عددٌ محدّدٌ من القرود ــ البشر، فتعمّ المعرفة آنئذٍ، بلا مشقّة، في الجزر الأخرى كافة؟

ــ أهذا هو؟ حقاً، رأيك يا أبتي؟

فصمت هنيهاتٍ.

ــ هل تقرئين الأفكار؟

ــ لا. ولكن إذا كنت تَحْسبُ حقاً أن الأمرَ لا يستحقّ، لما كنتَ اخترت حياة الرهبنة.

ــ في أحيان كثيرة، أجهد في فهمِ قدري، ولا أتمكّن من ذلك. لقد قبلت أن أنتمي إلى جيش الربّ، وكلّ ما أفعله هو السعي لأن أفسّر للبشر لِمَ بؤس الموجود، والألم، والظلم. أحثّهم على أن يكونوا مسيحيين صالحين، فيسألونني: «كيف لنا أن نؤمن بالله والعالم يرزح تحت هذا القَدْرِ من العذاب؟». فأحاول أن أفسّرَ ما هو غير قابل للتفسير. أحاول أن أقول إنَّ هناك خطة، وهناك معركة بين الملائكة، وأننا، جميعاً، معنيّون بهذا الصراع؛ وأنّه، حين يُصبح لعدد معيّن من الناس قَدْرٌ كافٍ من الإيمان لتغيير هذه الزينة البرّانية، فإنّ كلّ الآخرين، في كلّ أرجاء هذا الكوكب، سينعمون بحسناتِ هذا التغيير. لكنّهم لا يؤمنون بما أقول، ولا يحرّكون ساكناً.

ـ إنّهم مثل الجبال. والجبال جميلة جداً. مَنْ يقف أمامها لا يستطيع إلّا أن يفكُر في عظمة خَلْقها. إنها البرهان الحيّ على الحبّ الذي يكنّه لنا الربّ. غير أنّ قَدَر هذه الجبال هو، فقط، أن تشهد. إنها ليست كالأنهار التي تتحرّك، وتُغيّر كلَّ ما في المنظر.

ـ هذا صحيح. ولكنْ لِمَ لا نكون مثل الجبال؟

ـ ربّما لأنّ قَدَر الجبال مرعبٌ. فهي مُرغمة دائماً على تأمُّلِ المنظر نفسه.

لم يقل شيئاً.

تابعت قائلة: «لقد جهدتُ في أن أصير جبلاً. وكان كلّ شيء في موضعه. كنت سأتولّى وظيفة في الإدارة العامة، وأتزوّج، وأُربّي أولادي على دين أهلي، في حين أني كنتُ قد فقدت إيماني به. واليوم، أراني مصمّمة على التخلّي عن كل هذا واتّباع رجلٍ أحبّه. ولحسن طالعي، أنني أقلعتُ عن أمنيتي في أن أكون جبلاً. فلو فعلتُ، لما أمكنني المثابرة لوقت طويل».

ـ إنك تتفوهين بأمورٍ بالغة الحكمة.

ـ لطالما أذهلتُ نفسي. غير أني لم أكن، في السابق، قادرة على التحدُّث إلّا عن طفولتي.

نهضت. ولم يحاول الكاهن أن يتابع الحديث، احتراماً لصمتي، إلّا عندما بلغنا الطريق.

أمسكتُ يديه وقبلتهما:

«ساودّعك الآن. لكنّي أريدك أن تعلم بأنني أفهمك وأفهمُ حبّك له».

تبسّم وباركني. وأجاب قائلاً:

«أنا أيضاً أفهمُ حبَّك له».

قضيتُ بقية ذلك النهار جائلةً في أرجاء الوادي. لهوتُ بالثلج، ومَزرتُ بقرية قرب سان سافان، وأكلت فطيرة «باتيه»، ورحت أرقب صبية يلعبون بالكرة.

في كنيسة قريةٍ أخرى أوقدتُ شمعة. أغمضت عيني ورحت أردّد الابتهالات التي تعلّمتها ليلة أمس. ثمّ تلفظت بكلماتٍ لا معنى لها، مستغرقةً في تأمّل صورة مصلوبٍ خلفَ المذبح. وشيئاً فشيئاً تملّكتني هيبةُ اللغات. وكان ذلك أيسر ممّا ظننت.

كان الأمر ليبدو حماقة صرفاً: التمتمة بعبارات والتلفُّظ بكلمات مجهولة، ليس فيها أي معنى لعقولنا. غير أن الروح القدس كان يخاطب روحي، ويقول لها أموراً تحتاجُ إلى سماعها.

عندما شعرتُ بأني طهّرتُ نفسي كما ينبغي، أغمضتُ عيني وصليت:

«أيتها القديسة مريم، أعيدي لي إيماني، واجعلي أن أكون أنا أيضاً أداةً لصنيعك. امنحيني القدرة على التعلُّم بحبّي. ذاك أن الحبَّ لم يُبعد يوماً أحداً عن أحلامه. واجعليني رفيقة الرجلِ الذي أحبّه، وعونه. وليتمّ ما انبغى له إتمامه، بقربي».

لدى عودتي إلى سان سافان كان الليلُ قد شارف الهبوط. وكانت السيّارة مركونة أمام المنزل الذي نقيم في غرفةٍ منه.

سألني حالما رآني:

ــ أين كنت؟

ــ لقد تمشّيت قليلاً وصليّت.

ضمّني بقوة إلى صدره:

ــ لوهلةٍ خشيت أن تكوني قد رحلتِ. أنتِ أغلى ما لديَّ في هذا العالم.

ــ وأنت أيضاً.

توقّفنا عند قريةٍ قريبة من سان مارتن دو أونه. كانت رحلتنا عبر البيرنيه أطول ممّا حسبنا، بسبب المطر والثلوج التي هطلت ليلة أمس.

قال وهو يترجّل من السيّارة: «إنني جائع».

لم أتحرّك من مكاني.

«تعالي» قالها بإلحاح، وفتح الباب من جهتي. فقلت له:

«أودّ أن أسألك بشأنٍ أمر ما. سؤال لم أطرحه عليك مُذ التقينا».

علت وجهه، على الفور، سِماتُ الانهمام والرصانة. وأضحكني ما بدا عليه من قلق.

قلت:

ـ أهو سؤال مهمّ؟

أجبت، وأنا أجهد في أن أبدو على قدرٍ مماثل من الانهمام والرصانة: «سؤال مهمّ جدّاً، وهو إلى أين نحن ذاهبون؟».

فجعلنا نضحكُ، معاً، ضحكاتٍ من القلب.

أجابني، وقد بدا عليه الارتياح: «إلى سرقسطة».

ترجّلت من السيّارة، ورحنا نبحث عن مطعم ما زال يستقبل الزبائن. وبدا أن مثل هذا الأمر مستحيل في ساعةٍ مماثلة.

قلتُ في قرارة نفسي: «لا، ليس مستحيلاً. إن «الأخرى» ما عادت برفقتي. والمعجزات ممكنة». ثم سألته:

«متى ينبغي أن تكون في برشلونة؟».

لم يُجب، ولم يتبسَّم. قلت في سرّي: «ينبغي أن أجتنب مثل هذه الاسئلة. فقد يوحي ذلك بأنني أحاول التحكّم بحياته».

مشينا لبعض الوقت صامتين. عند الساحة، طالعتنا لافتة مضاءة: Mesón El Sol.

قالَ ولم يُردف قوله: «ما زال يستقبل الزبائن: فلنقصده لنأكل شيئاً».

كانت ثمار الفليفلة الحمراء المحشوة بالأنشوفة مرتَّبة على الطاولة متّخذة هيئة نجمة. وبجنبها جبنة المانش المشرّحة في رقائق رفيعة. وسط الطاولة شمعة مضاءة، وقنينة ريوخا نصفها ملآن.

قال النادل الذي جاء لخدمتنا: «هذا المكان كان نُزُلاً في القرون الوسطى».

لم يكن أحدٌ من روّاد المطعم جالساً إلى البار، في مثل تلك الساعة المتأخِّرة. نهض وأجرى مخابرة هاتفية، ثمّ عاد إلى طاولتنا. وددتُ أن أسأله بمن كان اتصاله، لكنّي أحجمت هذه المرّة.

أردف النادل قائلاً: «المحلّ يبقى مفتوحاً لغاية الثانية والنصف فجراً. وإن شئتما بإمكاني أن أقدِّم لكما المزيد من الجامبون والجبن والنبيذ، فما عليكما إلّا أن تجلسا عند الساحة، والشربُ سيدفئكما».

ــ لن نطيل بقاءنا هنا، إذ ينبغي أن نصل إلى سرقسطة قبل طلوع النهار.

عاد النادل إلى الكونتوار. ملأنا كاسينا مجدّداً. وأحسستُ، هذه المرّة أيضاً، بتلك الخفّة التي انتابتني في بيلباو، ثمالة الريوخا الخفيفة التي تعيننا على البوح بامور شاقّة وسماعها.

قلت إثر جرعة أخرى: «أنت متعب من قيادة السيّارة، وها نحن

نحتسي النبيذ. من الأفضل أن نقضي الليلة هنا. لقد لمحت فندقاً في طريقنا».

هزّ رأسه موافقاً.

قال: «انظري إلى هذه الطاولة قبالتنا، اليابانيون يسمّون ذلك الـ «شيبوني»: الفذلكة الحقّة للأشياء البسيطة. فالناس يجمعون المال، ويترددون إلى أماكن باهظة الأسعار، ويحسبون أنهم بذلك يُصبحون أناساً راقين».

سكبت المزيد من النبيذ.

إنه الفندق. وهذا يعني ليلة أخرى معه؛

ويعني البكارة المستعادة على نحو غامض.

قلتُ في محاولةٍ لصرفِ تفكيري إلى أمور أخرى:

ــ إنه لغريب حقاً، أن نسمع طالباً إكليريكياً يتحدث عن الفذلكة.

ــ والحالُ أني تعلّمتُ هذا في الدير. كلّما اقتربنا من الله بالإيمان، ازداد بساطة، وكلّما ازداد بساطة، عَظُمَ حضوره.

ربّت بيده قليلاً على أنحاءِ الطاولةِ، وقال:

«لقد بَلّغ المسيح رسالته، فيما كان ينشر الخشب ويصنع الكراسي والأسرّة والخزائن. لقد جاء في هيئةِ نجّار ليُبيِّن لنا، مهما كانت صنعتنا، أن كلّ شيء قد يُفضي إلى تجربة محبّة الله».

وتابع، بعد سكوت مفاجىء:

«ليس هذا ما أودّ الكلام عليه، بل على نوع آخر من الحب».

تحسّس وجهي براحتيه.

كانت الخمر تجعل الأمور يسيرةً بنظره. ويسيرة بنظري.

قلت: «لم سكتّ فجأة؟ لِمَ لا تريد أن تتحدّث عن الله والعذراء وعن العالم الروحاني؟».

ردّد بنبرةِ إصرار:

«أريد أن أتحدّث عن نوعٍ آخر من الحبّ. الحبّ الذي يتقاسمه رجلٌ وامرأة، ومن خلاله أيضاً تظهر المعجزات».

أمسكت بيديه. كان بمقدوره، طبعاً، أن يكون عالماً بأسرار الإلهة العميقة، أمّا الحبّ، فلم يكن يعرف عنه أكثر مما أعرف، حتى بعد أن جاب العالم بأسره. ولذلك كان عليه أن يدفع الثمن: أن يُبادر، ذلك أن المرأة هي التي تبذل الثمن الأبهظ: أن تهبَ ذاتها.

لبثنا على هذه الحال لبعض الوقت. كنتُ أقرأ في عينيه المخاوف السحيقة التي يفرضها الحبّ، بمثابة اختبارات ينبغي تجاوزها. وقرأتُ رفض الليلة السابقة، والأعوام الطويلة التي قضيناها بعيدين أحدنا عن الآخر، وسنوات الدير سعياً وراء عالم لا تحدث فيه مثل هذه الأمور.

كنتُ أقرأ في عينيه ألوفاً من المرّاتِ تخيّل فيها هذه اللحظة، والديكورات التي شيّدها من حولنا، تسريحة شعري ولون ملابسي. كنت أريد أن أقول بلى، إنه ستُحسَنُ وفادتُه، وإن قلبي ربح المعركة. كنت أريد أن أقول له كم أحبّه وكم أشتهيه في تلك اللحظة.

غير أني لزمت الصمت. شهدتُ، كما في حلم، صراعه الداخلي. رأيت أنّه كان ماثلاً أمام رفضي، وخوفه أن يفقدني، والعبارات القاسية التي سمعها في مواقف مماثلة؛ ذاك أننا جميعاً نجبه مثل هذه اللحظات، وتبقى لنا، مجتمعةً، آثار جرحها.

التمعت عيناه. كنت أعلمُ انه موشك على اجتياز كلّ هذه السدود.

عندئذٍ أفلتُّ إحدى يديه. وأخذت كاساً ووضعتها على حافة الطاولة.

قال:

ـــ سوف تقع.

ـ بالضبط. وأريدك أن توقعها.

ـ أن أحطِّم كاساً؟

أجل، أن يحطِّم كاساً. إنها حركة بسيطة، في الظاهر، لكنّها تشتمل على كلِّ المخاوف التي لا نتمكّن يوماً من فهمها. فما الضيرُ من تحطيم كاس عادية، في حين أننا جميعاً قد فعلنا ذلك، في لحظةٍ أو في أخرى، من دون قصد منا؟

ردّد سائلاً:

ـ أن أحطِّم كاساً؟ لأي سبب؟

ـ باستطاعتي أن أذكر لك بضعة أسباب. ولكن، في الحقيقة، أريدك أن تحطِّمها، لكي تحطِّمها، فحسب.

ـ نيابةً عنك؟

ـ بالطبع لا.

كان يحدِّق إلى الكاس عند حافة الطاولة، مهجوساً باحتمال وقوعه عنها.

وددتُ أن أقول له: «إنه اختبار بلوغ، كما قد تقول أنت. إنه المحظور. فالعادة تقول إن الكؤوس لا تُحطَّم عمداً. وعندما ندخل مصنعاً، أو ندخلُ بيتنا، نحرص على ألّا نترك الكؤوس على حافة الطاولة. عالمنا يتطلَّب منّا أن نتنبَّه إلى احتمال سقوط الكؤوس عن حافة الطاولة وتحطّمها، ومع ذلك، إذا حدث أن حطّمنا كاساً بلا انتباه، فإننا نكتشف، في آخر المطاف، أنه ليس أمراً خطيراً. يقول النادل: «لا بأس» ولم يسبق أن أضيف يوماً إلى فاتورة الحساب. إن تحطيم الكؤوس هو جزء من الوجود، ولا يُرتِّبُ أي ضرر لا علينا ولا على المطعم ولا على الآخرين».

ضربت براحةِ يدي على الطاولة. ترنَّحتِ الكاس، لكنّها لم تسقط.

صاح بعفوية:

ـ انتبهي.

فقلت بإصرار:

ـــ حطّم هذه الكاس.

وردّدت في قرارة نفسي: «حطّم هذه الكاس، لأنّ تحطيمها بادرة رمزية. حاول أن تفهم أني حطّمتُ في ذات نفسي أشياء أثمن بكثير من مجرّد كاس، وأنا سعيدة لأنني فعلت. راعِ صراعك الداخلي، وحطّم هذه الكاس، لأن أهلنا علّمونا أن نحافظ على الكؤوس وعلى الأجساد. علّمونا أنَّ شغف الطفولة ينتمي إلى مضمار المستحيل، وأنّه لا ينبغي إبعاد الرجال عن الكهنوت، وأن الناس لا يجترحون المعجزات، وأن أحداً لا يسلك طريق السفر إلّا إذا كان يعلم إلى أين يفضي به. حطّم هذه الكاس، أرجوك، وحرّرنا من كلّ هذه الأفكار المسبقة اللعينة، من هوسنا بتفسير كلّ شيء، والإحجام عن أي شيء لا يقرّ به الآخرون».

قلت مرة أخرى: «حطّم هذه الكاس».

حدّق إلى عيني بنظرات ثابتة. ثمّ، ببطءٍ حرّك يده سويّة ظاهر الطاولةِ إلى أن لمسَ الكاس. وبحركة مباغتة، دفعها وأوقعها أرضاً.

لفت تحطُّم الكاس على الأرض انتباه الجميع. وبدل أن يعتذر، رمقني مبتسماً، فبادلته الابتسام.

صاح النادل الذي كان يُعنى بتلبية طلبات الزبائن: «إنه أمر بسيط!».

لكنّه لم يصغ. كان قد نهض ثمّ جذبني من شعري وقبّلني.

جذبته أنا أيضاً من شعره، وضممته إليّ بقوة، عضّضتُ شفتيه، وأحسستُ بلسانه مختلجاً في فمي. كانت قبلة لطالما انتظرتها، ولدت على أنهار طفولتنا وكنّا لا نزال نجهل ما هو الحبّ. قبلةٌ بقيت معلّقة عندما كبرنا. وجابت العالم بأسره ومعها ذكرى مدالية، قبلة بقيت لأعوام مخبّأة خلف رزمة من كتب الدراسة لأجل امتحان دخول لوظيفة عامة. قبلة فُقِدَت مراراً، وإذا بها تعود.

في البرهة التي استغرقتها القبلة، احتشدت سنوات من البحث والخيبات والأحلام المستحيلة.

بادلته قبلته بقبلة أكثر حرارة. ولا بدّ أن رواد المطعم القلائل كانوا يتطلّعون إلينا، ولم يروا في ذلك إلّا قبلة. فقد كانوا يجهلون أن برهة القبلة تلك كانت اختصاراً لحياتي كلّها، لحياةِ كلٍّ مَنْ أَمِل وحلم وبحث عن طريقه تحت الشمس.

في لحظةِ القبلة تلك، اجتمعت كلّ لحظات البهجة التي عشتها.

نزع عني ملابسي وضاجعني. أحسستُ بقوّته، بخوفه، برغبته. شعرتُ ببعض الألم لكني لم أكترث. كما لم أكترث للمتعةِ التي كنت أشعر بها في تلك اللحظة. كنت أضع يدي على رأسِه، وأسمعُ أنينه، فاشكر الله لأنّه هنا، فيّ، ويمنحني الإحساس نفسه، كأنّها المرّة الأولى.

مارسنا الحبَّ طوال الليل، وكان الحبُّ ممزوجاً بالنومِ والأحلام. كنتُ أحسُّ به داخل جسدي، فأضمّهُ بين ذراعي كيما أتثبّت من أن الأمر حقيقة، كيما أمنعه من الرحيل فجأة، على غرار أولئك الفرسان الرحّالة الذين عاشوا، ذات يوم، فيما مضى، في هذا القصر الذي جُعِلَ فندقاً. كانت جدران الحجر، الصامتة، كأنها تسرد قصص الفتيات اللواتي لبثنَ ينتظرنَ، ودموعهن المسفوحة، والأيامٍ الطويلة التي صرفنها عند النافذة، وعيونهن شاخصةً إلى الأفق، لعلّ منه تلوح علامة أو يلوحُ رجاء.

أما أنا، فما كنتُ لأرضى بما أرتضينه، هنّ، من العيش: فقد عاهدتُ نفسي على أني أبداً لن أفقده. دائماً سيبقى بقربي، لأني سمعت كلام ألسنِ الروح القدس وأنا أتأمّل في مصلوبٍ وراء المذبح، وهذه الألسن أخبرتني بأني لا أقترف خطيئةً إذا فعلت.

سأكون رفيقته. معاً سنمهِّد سُبُلاً جديدة في عالم ينبغي ابتكاره من جديد. سوف نتكلّم عن الأم العظمى، وسنقاتل إلى جانب الملاك ميكائيل، وسنحيا معاً قلق الروّاد ووجدهم. هذا ما أخبرتني به الألسن، وأنا التي استعادت إيمانها، كنت أعلم أنها تقول الحقّ.

الخميس ٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٣

عندما استيقظتُ كانت ذراعاه تطوّقان صدري. كان النهار شارفَ ضُحاه، وكان يُسمعُ قَرْعُ أجراسِ كنيسةٍ مجاورة.

قبّلني، وعاودت يداهُ تداعب جسدي برفق.

قال:

ـ يجب أن نرحل، إن أيام العطلة تنتهي اليوم، ولا بدَّ أن الطرقات ستشهد ازدحاماً خانقاً.

ـ لا أريد الذهاب إلى سرقسطة. أريد أن أذهب مباشرةً حيثما تذهب أنت. سوف تفتح المصارف أبوابها قريباً، وأريد أن أستخدم بطاقتي لسحب بعض النقود، وشراء ما أحتاج إليه من ملابس.

ـ لقد قلتِ لي أنك لا تملكين الكثير من المال.

ـ سأتدبّر أمري. يجب أن أقطع صلتي كلّيّاً بماضيَّ. في حالِ عودتي إلى سرقسطة، فقد يُعاودني تعقُّلي من جديد، وقد يراودني التفكير مجدّداً بالامتحانات، وأجد أن من الطبيعي أن نبقى منفصلين لشهرين آخرين. وإن قيّض لي أن أنجح، فقد أرغب في البقاء في سرقسطة. لا، لا أستطيع أن أعود. يجب أن أهدم الجسور بيني وبين المرأة التي كنتها.

قال مخاطباً نفسه:

ـ برشلونة.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء. سنتابع طريقنا.

ـ ولكنْ عليك أن تلقي محاضرة.

أجاب، وقد بدت نبرة صوته غريبة بعض الشيء:

ـ بعد يومين، وليس قبل ذلك. لنذهب إلى مكان آخر. لا رغبة لي في الذهاب مباشرةً إلى برشلونة.

نهضت. لم أكن راغبةً في التفكير في أي مشكلة، ربّما لأني استيقظت كما نستيقظ عادةً إثر ليلة المضاجعة الأولى: ببعضِ التحفُّظ وشيءٍ من الحرج.

اقتربت من النافذة، وفتحت الستائر مُتطلّعةً إلى الشارعِ المقابل: على الشرفات، غسيلٌ منشور لكي يجف، وأجراس تقرع في البعيد.

قلت:

ـ لدي فكرة. لنذهب إلى مكان كنّا ذهبنا إليه في السابق، في طفولتنا. إلى مكان لم أزره منذ ذلك الحين.

ـ إلى أين؟

ـ إلى دير ببيدرا.

عندما غادرنا الفندق، كان رنين الأجراس لا يزال مسموعاً، فاقترح أن نعرّج، لبرهةٍ، على الكنيسة.

قلت:

ـ لم نفعل إلّا هذا: كنائس، صلوات، طقوس.

ـ كما أننا مارسنا الحبّ. وثملنا ثلاث مرّات. وتمشينا في الجبل. ووازنّا جيداً بين الشدّة والرحمة.

لقد تلفّظت بحماقة. فقد صار لزاماً عليّ أن أتعوّد نمطاً جديداً من الحياة.

فقلت له:

ـ سامحني.

ـ لندخل لبرهة. إن هذه الأجراس علامة.

كان محقّاً فيما قاله، لكنّي لم أدرك ذلك إلّا في اليوم التالي. ومن دون أن نفهم حقّاً تلك العلامة الخفيّة، ركبنا السيّارة، وسرنا بها أربع ساعات، حتّى وصلنا إلى دير بييدرا.

كان سقف الدير متهدّماً، والتماثيل القليلة المتبقية محطَّمة الأطراف، باستثناء تمثال واحد.

تطلّعت من حولي. لطالما كان هذا المكان ملاذ رجالٍ شديدي البأسِ، يسهرون على أن يبقى كلُّ حجرٍ نظيفاً، وكلُّ مقعدٍ لواحدٍ من كبار زمانه. غير أني ما كنت أراه في تلك اللحظة ليس أكثر من خرائب. خرائب كانت تستحيل، زمنَ طفولتنا، قصوراً نلهو في أرجائها سوياً، وفيها أبحث عن أميري الفاتن.

خلال قرونٍ من الزمن، حافظ رهبان دير بييدرا لأنفسهم على هذا الركن من الفردوس. وبما أنه يقع في قَعْرِ منخفضٍ، فقد كان يحظى من الطبيعة بما تشقى البلدات المجاورة في الحصول عليه: أي الماء. هناك، كان نهر بييدرا يشكُل سلسلةً من المساقط والينابيع والبحيرات، وكانت أنواع باذخة من النباتات تنمو في النواحي.

ومع ذلك، فعلى بُعدِ بضع مئاتٍ من الأمتار، خارج الوادي، يَصيرُ المنظر نهباً للجفاف والقحط. حتى النهر، خارج حدود هذا المنخفض، يستحيل قناةً شحيحة، كأنه استنفد فيها كل زخم صباه.

كان الرهبان يدركون ذلك جيداً، فيبذلون المياه للجيران بأثمان باهظة. وقد شهد تاريخ الدير عدداً لا يُحصى من النزاعات مع القرويين.

في النهاية، وخلال إحدى الحروب التي عصفت بإسبانيا، جرى

تحويل الدير إلى حصن. فكانت الجياد تنهبُ أرضَ الجناح الرئيسي من الكنيسة جيئةً وذهاباً، والجنود يُخيمون بين المقاعد، ويتبارون في سرد القصص الإباحية، ويضاجعون نساء البلدات المجاورة. فحلّ على المكان، ولو بعد حينٍ، الانتقام الذي جلبه على نفسه، فنُهبَ وهُدم.

لم يتمكّن الرهبان، بعد ذلك، من استعادة ذلك الفردوس. وخلال أحد النزاعات القضائية التي أعقبت ذلك، أكّد أحدهم أن سكان النواحي المجاورة إنّما أنزلوا بالدير قصاصاً شاءه الربّ. فقد قال المسيح: «واسقوا العطشى»، فقابل الرهبان وصيّته بأذنٍ صمّاء. ولهذا السبب، طرد اللهُ من كانوا يحسبون أنفسهم أرباب الطبيعة وسادتها.

وربّما كان ذلك سبب بقاء كنيسة الدير خراباً، مع كلّ أعمال الترميم التي أصابت معظم أرجاء الدير الأخرى وجعلتها فندقاً. فأحفاد أهل النواحي ما زالوا يذكرون الأسعار الباهظة التي كان على أسلافهم تسديدها، من أجلِ الحصول على شيء تبذله الطبيعة بسخاء.

سألت:

ـــ تمثال مَنْ ذاك الذي تمكّن من الحفاظ على رأسه؟

ـــ القديسة تيريز دافيلا. إنها ذات قدرة. وبرغم كلّ العطش للثأر الذي ولّدته الحروب، فإن أحداً لم يجرؤ على مسّها.

أمسكني بيدي، وخرجنا من الكنيسة. جلنا في أروقة الدير الهائلة، تسلّقنا سلالم خشبية، وشاهدنا الفراشات المحوّمة في حدائقه الداخلية. كنت أذكر كل تفصيل منه، لأني زرته في طفولتي، ولأن الذكريات القديمة تبقى حيّة أكثر من الذكريات المتأخرة.

كانت كل الأشهر والأيام السابقة على هذا الأسبوع تبدو، في ذاكرتي، جزءاً من حياة أخرى، من عهدٍ أبداً لا أرغبُ في الرجوعِ إليه، لأنّ ساعاته لم تمسّها يد الحبّ. وكان يُخيّل إليّ أنني لطالما

عشتُ النهار نفسه، لسنواتٍ وسنواتٍ، دائماً أستيقظ بالشعور نفسه، ودائماً أردِّد الكلمات نفسها، ودائماً تراودني الأحلام نفسها.

تذكَّرت أهلي وأهل أهلي، والكثيرين من أصدقائي. تذكَّرت كلّ ذلك الوقت الذي صرفته، وأنا أقاتل في سبيل أمر ما، كنتُ راغبةً فيه.

لمَ فعلت ذلك؟ لم أكن لأعثر على تفسير. ربّما لأني ما أردتُ أن أبذل جهداً في تخيُّل سبلٍ أخرى. ربّما خوفاً ممّا قد يظنّه الآخرون. أو لأنّ من يريد أن يكون مختلفاً، عليه أن يكابد المشقّات. أو، أيضاً، لأن الكائن البشري قد يكونُ محتوماً عليه أن يقتفي خطى الأجيال السابقة إلى أن يبدأ عدد محدّد من الناس ـــ وهنا تذكّرت ما قاله الأب الرئيس ـــ بالتصرُّف على نحوٍ مغاير. وإذ ذاك يتغيّر العالم، فنتغيّر معه.

ولكني، فيما يعنيني أنا، لم أشأ أن أتابع على هذا المنوال. فقد أعاد إليّ القَدَر ما كان لي. وهو يمنحني الآن فرصة لأغيِّر ما بنفسي، وأن أساعد في تغيير العالم.

فكّرتُ مجدّداً بالجبال، وبمتسلّقي الجبال الذين صادفناهم خلال نزهاتنا. كانوا شباناً يرتدون ملابس ذات ألوان فاقعة لكي يتمَّ اعتلامها بسهولة في حالِ تعرّضهم لحادثٍ ما، كما كانوا يعرفون جيّداً السُبُلَ التي تفضي بهم إلى القمة. كانت المنحدرات جميعها معلّمةً برزّاتٍ من الألمنيوم، مثبّتةٍ في الصخر: وكل ما كان عليهم أن يفعلوه هو تمرير حبالهم في حلقاتِ تلك الرزّاتِ، ليتسلّقوا الجبل باطمئنان. كانوا يقصدون المكان ليخوضوا مغامرة في عطلة نهاية الأسبوع، ثمَّ يعودون صباح الإثنين، لاستئناف مشاغلهم، يحدوهم الشعور بأنهم تحدّوا الطبيعة، وبأنهم انتصروا عليها.

ولكنّ تلك، لم تكن، في الواقع، هي الحقيقة. فالمغامرون الفعليون هم أولئك الذين صمّموا، قبل سواهم، على اكتشاف سُبُل التسلّق المفضية إلى القمة. بعضهم لم يصل حتّى إلى منتصف

الطريق وسقطَ في المهاوي. وبعضهم الآخر اضطر إلى بتر أصابعه لأنها يبست لشدّة البرد. والبعض اختفى إلى الأبد.

لكن، ذات يوم، بلغ أحدهم إحدى القمم، وقيِّض لعينيه أن تكونا أوّل من يُبصر هذا المنظر. فاختلج قلبه من الفرح. فقد تحدّى كلّ المخاطر، وإذا به، بفوزه، قد شرّف كلّ الذين هلكوا خلال سعيهم إلى الفوز.

ربّما عنَّ لأناسٍ، في الأسفل، أن يقولوا: «لا شيء يستحقُّ العناء، فوق، فليس هناك سوى منظر. فما الجدوى؟» غير أن المتسلِّق الأوّل شعرَ بما يستحق العناء: قبول التحدّي، والسير قُدُماً، واليقين أن ما من يومٍ شبيه بالآخر، وأن كل صباح يأتي بمعجزته الخاصّة، بلحظته السحرية الخاصة، حيث عوالم قديمة تنهار وكواكب جديدة تظهر.

ولا بدَّ أنّ أوّل المبادرين إلى تسلّق هذه الجبال قد طرح السؤال نفسه عندما نظر، إلى أسفل، وشاهد تلك البيوت الضئيلة والدخان المتصاعِد من مداخن سطوحها: «لهؤلاء الناسِ كلّ الأيام متشابهة. فهل هناك فيها ما يستحق أن يعاش؟».

في تلك الأثناء، بلغ الناسُ كلّ قمم الجبال. وسار رواد الفضاء على سطح القمر. ولم تبق جزيرة واحدة، مهما بدت صغيرة، إلّا تمّ اكتشافها. ومع ذلك، بقيت المغامرات الكبرى للروح. وها إنّ إحداها متاحة لي الآن. إنّها لَبَركة. والأب الرئيس كان مخطئاً في حسبانه. فمثل هذه الآلام غير موجعة.

طوبى لمن يستطيعون القيام بالخطوات الأولى. وذات يوم، سيدرك الناس أن الإنسان قادرٌ على التحدّث بلغة الملائكة؛ وأننا نمتلك جميعاً، في ما نحن عليه، أعطيات الروح القدس؛ وأن بإمكاننا اجتراح المعجزات: أن نشفي ونتنبّأ ونفهم.

قضينا فترة ما بعد الظهر نتجوّل في أنحاء الوادي، مستذكرين عهدَ طفولتنا. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يتصرّف بها على هذا النحو، فخلال رحلتنا إلى بيلباو، بدا غير مكترثٍ لصوريا. أما الآن، فقد كان، على العكس من ذلك، يسألني عن تفاصيل كل واحد من أترابنا، ويريد أن يعرف إذا كانوا سعداء، وماذا حلّ بهم وماذا يفعلون.

في آخر المطاف، بلغنا أكبر مساقط نهر بييدرا، الذي يجمع مياه عدد من الينابيع الصغيرة، ويُسقطها من علوٍّ يزيد على الثلاثين متراً. وقفنا عند الحافة، ولبثنا نصغي لذاك الهدير الذي يصمّ الآذان، متأملين قوس القزح، المرتسم خلل الضباب الذي يرفعه الرذاذ، عند مساقط المياه الشاهقة.

قلتُ مذهولة: «ذيل الحصان»، لأني تذكّرت اسماً كنت قد سمعته منذ زمن بعيد.

استهلّ حديثه قائلاً:

ــ أذكر...

ــ أجل! أعلم ما الذي ستقوله!

طبعاً كنتُ أعلم! كان الشلّال يحجب مغارة هائلة. وكنّا، أطفالاً، لم نكفّ عن الحديث عنها، لأيام وأيام، إثر رجوعنا من أولى نزهاتنا إلى دير بييدرا.

أكمل عبارته قائلاً: «...الكهف. لنذهب إلى هناك!».

كان العبور مستحيلاً من تحت الشلّال. لذا شيَّد الرهبان، فيما مضى، نفقاً يبدأ من أعلى موضع من الشلال، وينتهي عند أبعد موقع في جوف المغارة. ولم يكن العثور على مدخله بالأمر الشاق. ربّما كان النفق مجهّزاً بمصابيح إنارة خلال الصيف. ولكن، في مثل ذاك الموسم، كنّا وحدنا، وكان النفق غارقاً في عتمةٍ كالحة.

سألت:

ـ ومع ذلك تريدنا أن نمضي إلى الداخل؟

ـ بالتأكيد. فلتثقي بي.

شرعنا في النزولِ عبر الحفرة الملاصقة للشلال. ولم نكن نبصر شيئاً من حولنا. غير أننا نعرف طريقنا، وخصوصاً أنه طلب مني أن أتَّكل عليه.

قلت في سرّي، فيما كنّا نتوغّل قُدُماً في جوف الأرض: «شكراً يا ربّي، لأني كنت شاةً ضالة، وهديتني، لأن حياتي كانت مواتاً وبعثتها مجدّداً. لأن الحبّ كان قد هجر قلبي، فرددتَ إليَّ تلك النعمة».

كنتُ متَّكئة إلى كتفه. وكان حبيبي يقودُ خُطاي على دروب الظُلمة، مدركةً بأننا سنعثر مجدّداً على النور، وسنكون مبتهجين لرؤيته من جديد. قد نشهد، في المستقبل الذي ينتظرنا، لحظاتٍ يكون فيها مثل هذا الموقف معكوساً. وإذ ذاك ساكون أنا من يقود خطاه، بالحبّ نفسه، بالثقة نفسها، إلى أن نبلغ مكاناً، يمكننا أن نستريح فيه سوياً بأمان.

كنا نتقدّم ببطء. وكان الطريق المنحدر، الذي نسلكه، بلا نهاية. أكان ذلك اختبار انتقال يعتلمُ نهايةَ عهدٍ لا أثر فيه لنورٍ يُشرقُ في حياتي؟ وكنت، كلّما توغّلتُ في هذا النفق، أستحضر في ذهني كلَّ الوقت الذي أهدرته في الموضع نفسه، ساعيةً إلى غرسِ جذور في تربةٍ لا تُنْبتُ شيئاً.

غير أنّ الربَّ كان رؤوفاً. وأعاد إليَّ الحماسة المنسيَّة والمغامرات التي حلمتُ بها، والرجل الذي انتظرته، دونما قَصْد، طوال حياتي. لم يكن يراودني أي شعور بالندم، لأنَّه سيترك الرهبنة، لأنّ سُبُل خدمةِ الله عديدة، كما قال الأب الرئيس، وحبّنا سيجعل تعدّدها أكثر عدداً. فمن الآن فصاعداً، حُبيتُ بسانحةٍ لكي أخدم وأساعد، وكل ذلك بفضله.

سوف نجوب العالم. هو ليجلب الراحة للآخرين، وأنا لأجلب له الراحة.

«شكراً يا ربي، لأنَّك أعنتني على أن أخدم. علِّمني أن أكون جديرة بذلك. امنحني القوّة اللازمة لكي أكون جزءاً من رسالته، وأجوب بصحبته العالم بأسره، فامنحْ حياتي الروحية أفقاً جديداً. واجعل أن تكون أيامنا كلّها، كما كانت هذه الأيام الأخيرة، انتقالاً من موضعٍ إلى آخر، لشفاءِ المرضى، ومؤاساة المحزونين، بالحديثِ عن الحبّ الذي تكنّه لنا، جميعاً، الأم العظمى».

فجأة، تناهى هدير المياه إلى مسامعنا مجدداً. وأنار الضياء سبيلنا. واستحال النفق المظلم منظراً من أبهى مناظر الأرض. وجدنا أنفسنا داخل كهفٍ رَحبِ الأرجاء، باتساع كاتدرائية. ثلاث جنباتٍ منه نحتت في قلب الصخرِ. أما الجنبة الرابعة، فكانت «ذيل الحصان»، أي المياه التي تتدفقُ في البحيرة الزمردية الاخضرار عند أقدامنا.

كانت أشعة الشمس المائلةِ إلى الغروبِ تتخلَّل الشلاّل، وتعكس وهجها على جنباتِ الحجرِ التي ينثال منها الماء.

لبثنا متكئين إلى الصخرة، صامتين.

فيما مضى، في صغرنا، كان هذا المكان ملاذ القراصنة، حيث تبقى مخبأة كنوز مخيلتنا الطفلية. أما الآن، فهو معجزة الأم الأرض. كنت أشعر بأنني في أحشائها، وأعلم أنها هنا: كانت جنباتها الصخرية تحمينا، وجدار مائها يغسلنا من خطايانا.

قلتُ بصوتٍ مسموعٍ:

ــ شكراً.

ــ لمن توجهين شكركِ؟

ــ إليها. وإليك أيضاً، لأنك كنت الأداة لاسترداد إيماني.

اقترب من حافة البحيرة الجوفية. استغرق في تأمُّلِ مياهها وقال متبسماً:

ــ تعالي إلى هنا.

فاقتربت.

«يجب أن أحكي لك حكايةً ما زلتِ تجهلينها».

أشعرتني عباراته ببعض الخشية. غير أن نظراته كانت مستكينة، فاشعرتني بالاطمئنان.

«كل واحد منا يمتلك أُعطية. لدى بعض الناس تظهر بتلقائية. أما البعض الآخر، فيحتاج إلى بذلِ جهود شاقّة لكي يعثر عليها. وهذا ما بذلته خلال السنوات الأربع التي قضيتها في الدير».

كان عليّ في تلك اللحظة أن «أشارك في الحوار»، كيما أستعيد العبارة التي علّمني اياها، عندما حال الرجل العجوز دون دخولنا الكنيسة الصغيرة. وكان عليّ التظاهر بأني لا أعلم شيئاً.

قلت في سرّي: «لا. حسناً فعلت. إنه ليس مسار حرمان، بل غبطة».

ثم سألته، ساعيةً لكسب المزيد من الوقت كي أجيد تأدية دوري:

ـ ما الذي يفعله الطالب في مدرسة إكليريكية؟

ـ ليس هنا مكمنُ السؤال. فالواقع أني نمّيتُ أُعطية. إني قادر على الشفاء، عندما يشاء الله.

فقلت، جاهدةً في أن أبدو مندهشة:

ـ مرحى! هكذا لن نتكبّد تكاليف الأطبّاء.

لم يضحك. فشعرتُ بأني بلهاء.

«لقد نمّيت الأعطيات التي خبيتُ بها بالشعائر اللدنيّة التي شاركتِ فيها. في البدايةِ، فاجأني الأمر. كنت أصلّي، أطلب حلول الروح القدس، أضع يديّ فارزّ العافية لمرضى كثيرين. فذاع صيتي، وصار الناس ينتظمون كلّ يوم في صفوف طويلة أمام باب الدير، آملين أن أساعدهم. كنتُ في كلّ جرحٍ مُلتهبٍ فاسدٍ أرى جراح يسوع.

ـ إني فخورة بك.

ـ في الدير، وقف الكثيرون ضدّ ما أفعله. لكنّ الأب الرئيس محضني دعمه من دون شروط.

ـ سوف نتابع ما تقوم به الآن. سنجوب العالم سوياً. أنا أطهّر الجراح، وأنت تباركها، فيتمّم اللهُ معجزاته.

أشاح بناظريهِ عنّي، وحدّق إلى مياه البحيرة. كأنَّ حضرة ماثلة في تلك المغارة، على غرار تلك الليلة التي ثملنا فيها، معاً، على مثابِ البئر في سان سافان.

«ما سأحكيه الآن كنت حكيته لك من قبل، ولكني سأعيد الكرّة. ذات ليلة استيقظت، وكانت الغرفة مشرقةً بالأنوار. رأيت وجه الأم العظمى، ونظرتها المفعمة بالحب. منذ ذلك الحين، صرتُ أراها بين الفينة والفينة. لست أنا من يقدر أن يبادر إلى ذلك، لكنّها تظهر بين الحين والآخر.

«في ذلك الوقت، كنت عالماً بالإنجازات التي يحققها ثوريّو الكنيسة الفعليون. وكنت أعلم أن رسالتي على الأرض، إضافةً إلى شفاء المرضى، هي تمهيد الطريق أمام قبول الإله ـ المرأة، مجدّداً. إنه المبدأ الأنثوي؛ وسوف تنتصب ركيزة الرحمة من جديد، وسيعاد تشييد هيكل الحكمة في أفئدة البشر».

كنتُ أتطلّع إليه. كانت تعابيره، التي سادها التوتُّر لبعض الوقت، قد استعادت سكينتها.

«وكان دون ذلك ثمن كنت مستعدّاً لبذله».

ثمّ سكت، حائراً لا يعرف كيف يُكمل قصّته.

سألت:

ـ ماذا تعني بـ «كنت مستعداً لبذله»؟

ـ إنَّ درب الإلهة كان متاحاً فتحه بالكلمات والمعجزات، فقط. ولكنّ العالم لا يسير على هذا النحو. فالأمر سيكون بالغ المشقّة: دموع، وسوء فهم، وعذاب.

عندها، قلت في سرّي: «لقد حاول الأب الرئيس أن يزرع الخوف في قلبي. غير أني سأكون عونه».

ثم أجبت:

ــ إنه ليس درب الألم، بل هو دربُ مَجْدِ الخدمة.

ــ بيد أنّ معظم البشر ما زالوا يتصدّون للحب.

فادركتُ أنه يحاول أن يقول لي شيئاً، لكنّه يعجز عن ذلك. ربَّما تمكّنت من مساعدته. فقاطعته قائلة:

ــ لقد فكّرتُ مليّاً في أمر مشابه. إنَّ أوّل من أفلح في تسلّق أعلى قمة من جبالِ البيرنيه، قال في سرّه إن الحياة بلا مغامرة هي حياة بلا نعمى.

سألني وقد لاحظت أنه عاد إلى توتّره السابق:

ــ وما الذي تعرفينه عن النعمى؟ إن أحد أسماء الأم العظمى هو «سيّدة النعمى»، التي تبذل يداها السخيّتان بركاتهما لكلّ من يعرف كيف يتقبلها. ليس بمقدورنا قطّ أن نحكم على حياة قريبنا، لأنَّ كُلاًّ منا يدرك ألمه الخاص، وتخلّيه الخاص. فأن نظن أننا على الدربِ الصواب شيء، وأن نعتقد بأن هذا الدرب هو الدرب الوحيد، شيء آخر. لقد قال يسوع: «هناك أكثر من ملاذٍ في ملكوتِ أبي». إن الأعطية نعمى. ونعمى أيضاً أن يعرف الإنسان كيف يعيش حياة قوامها الكرامة وحبّ القريب والعمل. كان لمريم قرين على الأرضِ حاول أن يبرهن قيمة العمل الغُفْل. فمن دون أن يُشهر ذاته، كان هو مَنْ وفّر الملاذ والرزق لزوجه وابنه لكي يتاح لهما أن يُنجزا ما أنجزاه. إن عمله يُساوي بالأهمية عملهما، وإن كان لا أحد تقريباً يُقرُّ بقيمته.

لم أجب. فأمسك يدي.

«اغفري لي عدم تسامحي».

قبّلت يده، ووضعتها على وجهي.

فقال، وقد ارتسمت البسمة على شفتيه مجدّداً، «هذا ما أردت أن أشرحه لك، من أنني مذ عثرت عليك مجدّداً، قلتُ في سرّي إنني لا أملك الحقّ في التسبّب لله بأي عذاب جزاء رسالتي».

بدأ القلق يتسرَّب إلى روعي.

«أمسِ، كذبت عليك. إنها الكذبة الأولى والأخيرة. وللحقّ أقول إني بدل الذهاب إلى الدير، قصدتُ الجبل وتكلّمت مع الأمّ العظمى. وقلت لها إنني، إذا شاءت، أبتعد منك وأتابع طريقي. سأتابع مع المرضى المنتظرين عند الباب، مع التنقُّل الدائم تحت جناح الليل، مع سوء فهم أولئك الذين ينكرون الإيمان، والنظرة التهكّميّة لأولاء الذين لا يؤمنون بأن الحبّ خلاص. ولو طلبت مني ذلك لتخلّيت عمَّا أضنُّ به أكثر من أي شيء في العالم: أنتِ».

فكّرتُ مرّة ثانية بالأب الرئيس. كان محقّاً، ففي ذلك الصباح، كان يحسم أمر خياراته.

تابع قائلاً: «ومع ذلك، ولو كان ممكناً إبعاد هذه الكأس عن حياتي، فإنني أعاهد نفسي أن أخدم العالم من خلال حبّي لك».

سألت وقد تملكني الرعب: «ماذا تقول؟».

بدا كأنه لم يسمعني.

«ليس ضرورياً أن تُزحزح الجبال، لكي يبرهن الإنسان على إيمانه. فقد كنتُ مستعداً لجبه العذاب وحيداً، لا أن أتقاسمه مع أحد. فإن تابعت الدرب التي سلكتها، فلن يكون لنا منزل بستائر بيض ومنظرٍ على الجبل».

قلت محاولةً تمالك نفسي عن الصراخ: «ما عدت أريد أي ذِكر لهذا البيت! حتى إني لم أرد أن أدخله! ما أريده هو أن أرافقك، أن أكون إلى جانبك في معركتك، أن أنتمي الى أولئك الذين يجازفون قبل سائر الآخرين. ألا تفهم ما أقول؟ لقد أثرت جنوني!».

كان موقع الشمس قد تغيّر، وأصبحت أشعتها تنير جنبات المغارة. غير أنّ كلّ هذا البهاء كان قد صار بلا معنى.

لقد أخفى الله الجحيم وَسط الفردوس.

قال، وعيناه تتوسّلان لكي أفهمه:

ـ كفي: أنت لا تدركين حجم المجازفة.

ـ لكنك كنت سعيداً بخوضها!

ـ إني سعيد بخوضها. لكنّها مجازفتي أنا.

أردت أن أقاطعه، لكنّه لم يكن مصغياً إليّ.

«لذلك، أمسِ، طلبت من العذراء أن تجترح معجزة. طلبت منها أن تستردّ الأعطية التي حبتني بها».

كنتُ لا أصدّق أذنيّ.

«لديّ بعض المال، وكلّ الخبرة التي حصّلتها من أعوام الترحال. سنشتري منزلاً، وسأجد لي عملاً، وسأخدم الله كما فعل القديس يوسف، بتواضع الرجلِ الغُفل. ما عدتُ أحتاج إلى المعجزات لكي أبقي شعلة إيماني متوقدة. ما احتاج إليه هو أنت».

شعرتُ بساقيّ تخوران، كأني على وشك الإغماء.

«في اللحظة التي طلبت فيها من العذراء أن تستردّ أعطيتها، خاطبني صوتٌ قائلاً: ضع يديك على الأرض. وسوف تخرج الأعطية منك، وتعود إلى جوف الأمّ».

فاستبدّ بي الهلع:

ـ لا تقُل إنّك...

ـ بلى، فعلتُ ما أمرني به وحيُ الروح القدس. فانقشع الضباب وراحت الشمس تسطع بين الجبال. شعرتُ بأن العذراء تفهمني، لأنها، هي أيضاً، أحبَّت كثيراً.

ـ لكنّها تبعت الرجل الذي أحبَّته! وقبلت أن تتبع خطوات ابنها!

ـــ «نحن لا نملك قوّتها، يا بيلار. سوف تحلّ أعطيتي في شخص آخر. ولن تذهب سُدى على الإطلاق.

«أمسِ، عندما كنا في المقهى، اتصلت هاتفياً ببرشلونة، وألغيت المحاضرة. سنذهب إلى سرقسطة: لديك فيها معارف وأصدقاء، وبإمكاننا أن نبدأ من هناك. وساجد وظيفة بأسرع وقت».

بتُّ عاجزةً عن التفكير.

«بيلار».

غير أني كنتُ قد توغلت مجدّداً في النفق، من دون كتفٍ أستند إليها، وكان يتبعني حشدٌ من المرضى مقبلين على الموت، ومن الأسر المُعذّبة، والمعجزات التي لن تتم، والضحكات التي لن يتاح لها أن تُجمّل العالم، والجبال التي سوف تبقى، دائماً، في مكانها.

كنت لا أبصر شيئاً، لا شيء سوى العتمةِ التي أكاد أتحسّسها وتكتنفني.

الجمعة ١٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٣

على نهر بييدرا، هناك جلست فبكيت. ذكريات تلك الليلة غامضة، مشوّشة. فقط أعلم أني كنت على شفير الموت، لكني لا أذكر وجهه ولا إلى أين كان يحملني. كم أودّ أن أذكره لكي أطرده هو أيضاً من قلبي. لكني لا أستطيع. يبدو لي كلّ ذلك حلم يقظة، منذ اللحظة التي خرجت فيها من ذلك النفق المظلم، لألاقي مجدّداً العالم الذي خيّم عليه، هو أيضاً، ليلٌ حالك.

ما من نجمة تلمع في السماء. لا أذكر جيّداً كيف سرتُ باتجاه السيّارة. وكيف أخذت حقيبة يدي ورحتُ أجوبُ المكان بلا غاية. لا بدّ أنني بلغتُ طريق السيّارات وحاولت، عبثاً، أن أوقف سيّارة لتقلّني إلى سرقسطة: وفي آخر المطاف عدت إلى حدائق الدير.

كان هدير المياه طاغياً والشلّالات في كلّ مكان، وحضور الأمّ العظمى التي تتبعني حيثما ذهبت. بلى، لقد أحبَّت العالم. أحبَّته كما أحبَّت الربّ، ما دامت قد ضحّت بابنها من أجلِ خلاص البشر. ولكنْ أكان بوسعها أن تتفهّم حبّ امرأة لرجل؟

لا بدَّ أنها كابدت العذاب جرّاء حبّها، غير أن حبّها كان مختلفاً. كان زوجها السماوي عليماً بكلّ شيء. قادراً على اجتراح المعجزات. وزوجها الأرضي كان حِرَفياً متواضعاً، ومؤمناً بما تسرده عليه أحلامه. لم تختبر يوماً معنى أن تهجر رجلاً، أو أن يهجرها هو. وفي اليوم الذي أراد يوسف أن يطردها لأنها حامل، بعث زوجها السماوي بملاكٍ لكي يحول دون ذلك.

صحيح أن ابنها قد هجرها. لكن الأبناء دائماً يهجرون آباءهم.

ومن اليسير أن نُسامَ العذاب جزاء حبّنا لقريبنا، وحبنا للعالم، وحبّنا لابننا. مثل هذا العذاب بعضه من الحياة نفسها. وهو ألم نبيلٌ وسامٍ. من اليسير أن نسام العذاب حبّاً بقضية، أو حبّاً برسالة: فمثل هذا من شانه أن يُعظّم قلب من يتعذّب.

ولكن كيف نفسّر معنى أن نُسامَ العذاب بسبب رجل؟ إنه أمر مستحيل. فإذ ذاك نحيا في الجحيم، لأنّ ليس في ذلك نُبلٌ أو عظمة، بل مجرّد بؤس.

في تلك الليلة، نمتُ على الأرضية الباردة، وسرعان ما تسلّل الصقيع كالخدر إلى جسدي. لوهلةٍ فكّرتُ بأنني قد أموت إن لم أجد ما أتدثّر به، حسناً، وماذا بعد؟ كلُّ ما أضن به في حياتي أعطيته بسخاء في غضون أسبوع من الزمن، ثمَّ أُخِذَ مني بدقيقة حتّى قبل أن أتمكّن من النطقِ بحرفٍ واحد.

راح جسمي يرتعد، لكنني لم أبالِ. سوف يكفّ عن الارتعاد عندما يستنفد كلّ طاقته في سعيه وراء الدفء. وإذ ذاك سيستعيد دعته المعتادة، وسوف يحسن الموتُ وفادتي.

بقيتُ مُرتعدةً لساعةٍ من الزمن. وبعد ذلك عاودتني السكينة.

قبل أن أغمض عيني، سمعتُ صوت أمي. كانت تسرد لي حكاية كانت قد حكتها لي في صغري. غير أني، في ذلك الوقت، ما كنت أعلم أني، ذات يوم، ساحيا حكايةً تشبهها.

كان صوت أمي يسرد قائلاً، بين الحلم والهذيان: «شاب وفتاة يتحابّان بجنون، قررا أن يعقدا خطوبتهما. والعادة تقضي بأن يتبادل الخطيبان الهدايا. غير أن الشاب كان فقيراً، لا يملك إلا ساعة يد ورثها عن جدّه. وإذ فكّر بشعر حبيبته الجميل، صمَّم على بيع الساعة، لكي يقدّم لها مشطاً رائعاً من الفضّة.

«الفتاة، من جهتها، لم تكن، هي أيضاً، لتملك ثمن هدية خطوبتها. فقصدت أحد كبار تجّار الناحية، وباعته شعرها. وبالنقود التي حصلت عليها، اشترت سلسلةً مذهبة لساعة حبيبها.

،وعندما التقيا من جديد، يوم إعلان الخطوبة، أعطته سلسلة ساعة كانت قد بيعت، وأعطاها المشط الذي به تسرّح شعرها المقصوص.

كان رَجل يهزّ كتفي برفق، فأيقظني.

كان يردّد قائلاً: «اشربي! اشربي بسرعة!».

كنتُ غاشيةً عمّا يجري، ولا أقوى على المقاومة. فتحَ لي فمي وأجبرني على احتساء شرابٍ أحرق حلقي. لاحظتُ أنه لا يرتدي إلا صِداراً؛ فقد غطّاني بردائه.

ألحّ عليّ قائلاً: «اشربي قليلاً بعد!».

كنتُ غاشية عمّا يجري، لكني، مع ذلك، انصعت لكلامه. ثمّ أغمضت عيني.

استيقظت مجدداً في الدير. وكانت امرأة تسهر عليّ.

قالت: «كنتِ على شفير الموت. لولا حارس الدير لما كنتِ هنا الآن».

نهضت مترنحة. عاودتني ذكرى بعض ما جرى الليلة الماضية، وأسفتُ لأنّ ذاك الرجل كان هناك لإنقاذ حياتي. غير أن ساعة الموت كانت قد ولّت. والواضح أني سأواصل العيش.

اصطحبتني المرأة إلى المطبخ، وقدّمت لي قهوةً وبسكوتاً وفطائر. لم تطرح علي أسئلة. وأنا، من جهتي، لم أحكِ لها شيئاً.

عندما فرغت من طعامي، أعطتني حقيبة يدي، قائلة:

ـ تثبّتي من محتوياتها.

ـ لا داعي لذلك. وبأية حال لم أكن أملك شيئاً.

ـ تملكين حياتك، يا ابنتي، حياة مديدة. حاولي أن تحافظي عليها بعنايةٍ أكبر.

قالت متداركة دموعي:

ـ على مقربة من هذا المكان، هناك كنيسة قروية. أمسِ دخلت تلك الكنيسة برفقة...

لم أدرِ كيف أشرح ذلك:

«... صديق طفولة. كنت قد مللتُ زيارة الكنائس، لكن الأجراس كانت تقرع، وقال لي إنها علامة، ولا بدّ من دخولها».

ملأت المرأة فنجاني، وسكبت لنفسها قليلاً من القهوة، وجلست مصغية إلى حكايتي:

«دخلنا تلك الكنيسة. لم يكن أحدٌ فيها، وكان الجوّ فيها معتماً. حاولت أن أكتشف العلامة، غير أني لم أرَ سوى المَذْبَح نفسه، والتماثيل نفسها، كما في كل الكنائس. فجاة تناهت إلى سمعنا جلبة ما عند المنبر الأعلى، حيث يوضع الأرغن. واتّضح أنها مجموعة من الشبّان يحملون غيتاراتهم. وما لبثوا أن انكبّوا على دوزنة آلاتهم. قرّرنا أن نجلس لسماعِ بعض الموسيقى قبل أن نتابع طريقنا. بعد ذلك بقليل، دخل رجلٌ وجلس بقربنا. كان مَرِحاً، وصاح طالباً من العازفين أن يعزفوا موسيقى «باسّو دوبلي».

قالت المرأة مبدية دهشتها:

ـ إنها موسيقى لسباق الثيران! أرجو ألّا يكونوا قد فعلوا.

ـ لا. ضحكوا وراحوا يعزفون لحن «فلامنكو». خُيّل إلينا، أنا وصديقي، أن السماوات قد هبطت إلى حيث جلسنا: الكنيسة، الضياء المكتنف بالعتمة، أنغام الغيتارات وحبور الرجل الجالس بقربنا، كلّ ذلك كان معجزة حقّة. ثمّ، شيئاً فشيئاً، امتلأت الكنيسة بالناس. كان العازفون يواصلون عزف الفلامنكو، والناس الوافدون يستسلمون لحماسة الموسيقيين واسترسالهم. سألني صديقي إذا كنت راغبةً في حضور القدّاس الذي سيبدأ بعد قليل. فقلت: لا، لأن الطريق، أمامنا، طويل. وقرّرنا أن نغادر، ولكن، قبل ذلك، شكرنا الربّ لأنه منَّ علينا بتلك اللحظات الرائعة. وعند بلوغنا باب الكنيسة لاحظنا أن عدداً كبيراً، عدداً غفيراً حقّاً من سكان تلك القرية، يتدفقون باتجاه الكنيسة. وعزوت ذلك إلى أنَّها آخر قرية في إسبانيا، سكّانها كاثوليكيون، قلباً وقالباً، أو إلى الأجواء الحماسية للقداديس، جزاء الموسيقى. حالما هممنا بركوب السيارة، لفتنا موكب يتقدّم. رجال يحملون تابوتاً. فلا بدَّ، إذاً، أن يكون

موكباً جنائزيّاً. ما إن بلغ الموكب مدخل الكنيسة حتى توقف العازفون عن عزف ألحان الفلامنكو، وشرعوا يعزفون لحناً جنائزياً.

قالت المرأة، مرتسمة بشارة الصليب:

ـ فليرأف الله بتلك النفس.

رددتُ قائلةً مرتسمة، أنا أيضاً، بشارة الصليب:

ـ فليرأف بها. ولكن لمجرّد دخولنا تلك الكنيسة مغزىً ما: أن الحزن دائماً يعتلمُ نهاية الحكاية.

تطلّعت المرأة إليّ، ولم تجب بشيء. ثمّ غادرت المطبخ لتعود بعد هنيهات، وبيدها أوراق وقلم.

«تعالي معي».

خرجنا معاً. كان النهار في أوّله.

«تنشّقي ملء أنفاسك. وفي هذا الصباح الجديد يتسرّب إلى رئتيك لكي يسري في عروقك. فالظاهرُ أنّك لم تضلّي طريقك أمسِ بمحض المصادفة».

لم أجِز جواباً. فاردفت قائلة:

«كما لم تفهمي أيضاً، الحكاية التي سردتها على مسمعي ولا مغزاها، كذلك لم تلتفتي إلّا لكآبة الأحداث الختامية، غافلةً عن لحظات البهجة التي عِشتها في الكنيسة. ونسيت ذلك الشعور بأن السماوات هبطت إلى حيث تجلسان، وغبطتك بأن تحيي كلّ ذلك برفقة...».

استدركت قليلاً، وتبسّمت، ثم استكملت عبارتها بنبرة تواطؤ:

«... صديق طفولتك. لقد قال يسوع: «دعوا الموتى يدفنون موتاهم»، لأنه يعلم أنه لا وجود للموت. كانت الحياة موجودة قبل ولادتنا، وسوف تبقى موجودة بعد رحيلنا عن هذا العالم».

اغرورقت عيناي بالدموع.

تابعت قائلة:

ـــ وهذا ينطبق على الحب. لقد كان موجوداً قَبْلاً، وسيبقى موجوداً إلى الأبد.

ـــ من يسمعك قد يقول إنَّك تعرفين تفاصيل حياتي.

ـــ هناك أمر مشترك في قصص الحبّ جميعها. أنا أيضاً عشتُ لحظات مماثلة في وقتٍ ما من حياتي. غير أني لا أذكرها. أذكر أن الحبّ عاد في هيئة رجل آخر، وتطلّعاتٍ جديدة، وأحلام جديدة.

مدّت يدها نحوي بالأوراق والقلم:

«اكتبي كل ما يعتمل في قلبك. انتزعي كلّ ما نفسِك، وضعيه على الورق، وبعد ذلك ارمي به بعيداً. تروي الأسطورة أن نهر بييدرا هو من البرودة بحيث إن كلّ ما يقع في مياهه، من أوراق، وحشرات، وأرياش طيور، يستحيل حجراً. ألا ترين أنها قد تكون فكرة سديدة أن يُترك الألمُ في تلك المياه؟».

أخذتُ الأوراق. قبّلتني، وقالت إن بإمكاني، إذا شئتُ، أن أعود لتناول طعام الغداء.

صاحت قائلةً، فيما كنتُ أسيرُ مبتعدة: «لا تنسي، الحب يبقى، والرجال، وحدهم، هم الذين يتغيّرون!».

لبثتُ طويلاً، وأنا أتأمّل مياه النهر. بكيتُ حتى شعرتُ بأن دموعي قد جفّت.

عندئذٍ، شرعتُ بالكتابة.

خاتمة

كتبتُ طوال نهار، ثمّ نهار آخر، ثمّ آخر. كنت أذهب، كلّ صباح، إلى ضفة نهر بييدرا. وعند المساء، تقترب المرأة وتمسك بذراعي وتصحبني إلى غرفتها، في الدير القديم. كانت تغسل ثيابي، وتُعدُّ طعام العشاء، وتحدّثني عن أمور عادية، وتقودني إلى السرير.

ذات صباح، وفيما كنتُ على وشك الفراغ من المخطوطة، سمعت هدير محرّك سيّارة. أجفل قلبي ولكنني ما كنت أريد أن أصدّق ما ينبئني به. كنت أشعرُ بأني قد تحرّرت كلياً من كل شيء، ومستعدة للرجوعِ إلى العالم، لأحيا فيه مجدّداً. كنت قد اجتزتُ أكثر المشقات، ولم يبق إلّا الشعور بكآبة الأسف. غير أن قلبي كان محقّاً. حتّى قبل أن أرفع عيني نحوه، أحسست بحضوره وسمعت خطواته.

ناداني، وهو يجلس بقربي: «بيلار».

لم أجب. تابعت الكتابة، لكنّي بتُّ عاجزة عن متابعة أفكاري. كان قلبي يخفق بقوّة، محاولاً القفز من بين ضلوعي، لكي يهرع للقائه. غير أني كنتُ أحول دون ذلك.

لبث جالساً، مستغرقاً في تأمُّلِ النهر، فيما أتابع الكتابة دونما توقّف. قضينا الصباح كلّه على هذا النحو، لم ننبس بكلمة.

وتذكَّرتُ صمت أمسية ما، بقرب بئر، عندما أدركت فجاة بأني أحبّه.

عندما تعبت يدي من الكتابة، توقفت قليلاً. فخاطبني، إذ ذاك، قائلاً:

«كان الليلُ حالكاً عندما غادرتُ المغارة، ولم أتمكَّن من العثور عليك. فذهبت إلى سرقسطة، ومنها إلى صوريا. كنت لأجوب العالم بأسره، بحثاً عنك. فقرّرت العودة إلى دير بييدرا، كيما أعثر على أثر لك، والتقيت امرأة. هي التي دلّتني، وقالت لي إنّك لبثت تنتظرين عودتي، طوال الأيام المنصرمة».

اغرورقت عيناي بالدموع.

«سوف أبقى جالساً بقربك ما بقيتِ قبالة هذا النهر. وإذا ذهبتِ إلى النوم، فسأنام أمام بابك، وإذا رحلتِ بعيداً، سوف أتبع خطاك. إلى أن تقولي لي: ارحل! وعندئذ سارحل. ولكني لن أقوى على الكفّ عن حبّك لما تبقى لي من أيام عمري».

كنتُ قد بتُّ عاجزةً عن مداراة دموعي. ورأيت أنه يبكي، هو أيضاً.

استهلّ قائلاً:

ــ أريدك أن تعلمي أمراً...

ــ لا تقل شيئاً. اقرأ.

ومددت إليه يدي بالأوراق التي كنت قد أسندتها إلى ركبتي.

لبثت فترة ما بعد الظهر، وأنا أتأمّل مياه نهر بييدرا. أحضرت لنا المرأة فطائر ونبيذاً. ثمّ قالت شيئاً عن حال الطقس، وغادرتنا. توقف مراراً عن القراءة، غارقاً في أفكاره، مُتطلّعاً بشرودٍ إلى الأفق.

في لحظة ما، قرّرت أن أسير قليلاً في الغابة، فسلكت السُّبُلَ بمحاذاة مساقط المياه الصغيرة، عند المنحدرات المجلّلة بالتاريخ. ولمّا مالت الشمس إلى المغيب، عدتُ إلى حيث تركته.

قال، وهو يعيد إليّ الأوراق: شكراً لكِ، واغفري لي».

على نهر بييدرا جلستُ فتبسّمت.

تابع قائلاً: «إن حبَّك ينقذني، ويعيدني إلى أحلامي».

لبثت صامتة، بلا حراك.

سألني: «هل تذكرين ما جاء في المزمور ١٣٧؟».

أشرتُ برأسي نفياً. كنت خائفة من الكلام.

«على أنهار بابل...».

قلت، عندئذ:

ــ بلى، بلى، أعرفه، وبي شعورٌ بأني أعودُ تدريجاً إلى الحياة. إنّه يحكي عن المنفى. عن أناس يعلّقون كِناراتهم على الأشجار، لأنهم يعجزون عن إنشاد اللحن الذي يأنسُ إليه القلب.

ــ ولكن بعد أن ينتحب، حنيناً لبلد أحلامه، يعاهد منشد المزمور نفسه، قائلاً:

ان نسيتكِ يا أورشليم

فلتَشَلَّ يميني

وليلتصقْ لساني بحنكي،

ان لم أذكركِ

ان لم أرفع أورشليم

الى أوجِ فرحي.

تبسّمتُ مرّةً أخرى.

ــ كنت قد بدأت أنسى. فجعلتني أستردّ ذاكرتي.

ــ أتعتقد بأنّك ستستردّ الأعطية؟

ــ لا أدري. لكن الربّ لطالما منحني فرصة ثانية. وها هو يعطيني فرصة ثانية الآن، معك. وسوف يعينني على العثور على دربي.

قاطعته مجدّداً:

ــ دربنا.

ــ أجل، دربنا.

أمسك بيدي، وأنهضني.

ــ اذهبي لإحضار حقيبتك. فالأحلامُ تقتضي عملاً.

سلسلة الأدب واللغة

صدر منها:

- ☐ الاستراحة - ليلى عسيران
- ☐ الحوار الأخرس - ليلى عسيران
- ☐ المدينة الفارغة - ليلى عسيران
- ☐ جسر الحجر - ليلى عسيران
- ☐ خط الأفعى - ليلى عسيران
- ☐ عصافير الفجر - ليلى عسيران
- ☐ قلعة الأسطة - ليلى عسيران
- ☐ لن نموت غداً - ليلى عسيران
- ☐ فروخ ناز (ألف يوم ويوم) - نعمة الله ابراهيم
- ☐ السير الشعبية العربية - نعمة الله ابراهيم
- ☐ الأيام والناس - برهان الدجاني
- ☐ علم الإبداع - د. مروان فارس
- ☐ آن الأوان - طلال حيدر
- ☐ انظر إليك - مرام المصري
- ☐ بائع الفستق / رواية - سمير عطا الله
- ☐ اللباس والزينة - أ. بينول
- ☐ صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية - د. محمد أبو علي
- ☐ المساجلات - أحمد حاطوم
- ☐ في مدار اللغة واللسان - أحمد حاطوم
- ☐ كتاب الإعراب - أحمد حاطوم
- ☐ إميل بجاني، كاتب في الغربال - بقلم شخصيات عدة
- ☐ طه حسين، من الشاطئ الآخر - عبد الرشيد محمودي
- ☐ الله بالخير - ابراهيم سلامة
- ☐ موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية - منير عبود
- ☐ عشرون روائياً عالمياً يتحدثون - عصام محفوظ
- ☐ مختارات من الشعراء الرواد في لبنان - عصام محفوظ
- ☐ قصة يوطوبيا - قصة مشربية - حسن فتحي
- ☐ جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران - د. بطرس حبيب
- ☐ ألف ليلة وليلة - الجزء الأول - قدري قلعجي
- ☐ ألف ليلة وليلة - الجزء الثاني - قدري قلعجي
- ☐ ألف ليلة وليلة - الجزء الثالث - قدري قلعجي

- ألف ليلة وليلة ـ الجزء الرابع ـ قدري قلعجي
- ألف ليلة وليلة ـ الجزء الخامس ـ قدري قلعجي
- الناس والآخرون ـ قدري قلعجي
- سلسلة «شهرزاد تروي» ٣٠ جزءاً
- سلسلة «شهرزاد تقدم» ١٨ جزءاً
- الحب والتصوف عند العرب ـ د. عادل كامل الآلوسي
- سنوات ضائعة من حياة المتنبي ـ هادي محيي الخفاجي
- الطربوش ـ روبير سوليه
- مهما قلت لا تقل ـ د. نبيل سليمان
- امرأة تبحث عن وطن ـ ماريا المعلوف
- كنوز العرب ـ شكري نصرالله
- قالوا وفعلوا : وقائع من تاريخ العرب وتراثهم ـ شكري نصرالله
- الثالث ـ شكري نصرالله
- دريد لحام / مشوار العمر ـ د. فاروق الجمال
- خطوات أنثى ـ رُدينة الفيلالي
- بساط من الزهر الأحمر ـ نيولوفر بازيرا
- امرأة... وظلأن ـ خلود عبد الله الخميس
- اعترافات غايشا ـ آرثر غولدن

مؤلفات پاولو كويليو

- إحدى عشرة دقيقة
- الشيطان والآنسة بريم
- الخيميائي
- على نهر بييدرا هُناك جلست فبكيت
- حاجّ كومبوستيلا
- الجبل الخامس
- ڤيرونيكا تقرر أن تموت
- الزهير
- ساحرة بورتوبيللو

Inv: 3272
Date: 8/4/2013

الكتاب

يستأنف باولو كويليو في روايته "على نهر بييدرا هناك جلست فبكيت" رحلته الخاصة لاستكشاف أعماق النفس البشرية، والغوص في تناقضات الكائن الذي يوضع دائماً أمام الخيارات الشخصية الحاسمة للاضطلاع بمصيره الفردي. رحلة استكشاف الذات بحثاً عن حقائقها الدفينة، وعن اختبارات المشاعر التي تجعلها، على الدوام، عرضة لشقاقات الطمأنينة والقلق، السعادة والشقاء، اليقين والحيرة.

كانت بيلار تظن أنّها سعيدة، فقد حصّنت نفسها حيال الحياة والأمل والحب. غير أن المصادفة شاءت أن تلتقي أحد أتراب طفولتها؛ واتضح لها أنه حُبِيَ بالقدرة على الشفاء وعلى مخاطبة النفوس.

وإذ اختارت بيلار أن تبقى بجواره لبعض الوقت، عاودتها كلّ الأسئلة التي طالما حسبت أنها صارت طيّ النسيان. وعندما أسرّ إليها بحبّه، راحت تشكّك بجدوى حياتها السابقة، حائرة في أمرها. فهل ترضخ لشغفه بها وتفتح له قلبها، أم تواصل عيشها الخالي من أي رجاء؟ تختار بيلار أن تكون دائماً إلى جانبه، في بذله كلّ ما يملك وكل ما حُبِيَ به من قدرات لخدمة الربّ. ولكن هل يُعطى من نذر نفسه لحبّ ا" أن يساكن قلبه حبّ امرأة؟

في هذه الرواية، يحاول كويليو أن يطرح، بعمق، مسألة التعارض الظاهري بين الدروب المختلفة التي قد يسلكها الأفراد لكي تتمّ لهم [illegible]. لأن رحلة سعيهم على الأرض لا تكون مجدية إذا كانت خالية [illegible]



ISBN 978-9953-88-040-2
9 789953 880402

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. : ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٩٦١١٣٥٠٧٢٢ +
تلفون+فاكس: ٣٤٢٠٠٥- ٣٥٣٠٠٠- ٩٦١١٣٤١٩٠٧ +
trade[illegible]-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر